

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

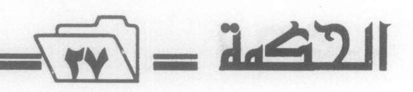
الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

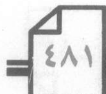
وبعد..

فكنتُ قد كتبتُ دراسة مستقلة بعنوان: **«مسائل علم المعاني في الحديث**

---

(١) دكتوراه في البلاغة والنقد من جامعة أم القرى عام ١٤١٦هـ/١٩٩٥م. عضو هيئة التدريس بجامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، ورئيس قسم اللغة العربية في مقر أبو ظبي، عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سابقاً، صدر له عدد من الدراسات التخصصية بالإضافة إلى عدد من البحوث والدراسات الفكرية والإسلامية، شارك بـ (١٢) بحثاً محكماً في عدد من الدوريات العلمية المحكمة الرصينة، من آثاره المطبوعة: الإمام الطيبي حياته وجهوده العلمية، تحقيق: فتح الجليل للسيوطي، أهمية الإيمان وآثاره في بناء الفرد والمجتمع، مسرحية في ظلال اليرموك، مسرحية صلاح الدين الأيوبي، اتجاهات تجديدية متطرفة في الفكر الإسلامي المعاصر.





النبوي من خلال كتاب (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للمناوي» وقد تناولت فيها ما بذله العلامة محمد عبدالرؤوف المناوي المتوفى (١٠٣١هـ) من جهد في هذا الصدد، وقد استعرضتُ في مقدمة الدراسة أهمية البحث في البلاغة النبوية، والكشف عن جهود المناوي في إبرازها، ومزايا البيان النبوي، والصعوبات التي واجهتها في البحث، وتناولتُ في التمهيد نبذة عن حياة السيوطي [(١)] (ت ٩١١هـ) ومنهجه في كتابه «الجامع الصغير»، ثم نبذة عن حياة المناوي [(٢)] ومنهجه في كتابه «فيض القدير شرح الجامع الصغير»، ثم نبذة عن تعريف البلاغة والفصاحة من خلال ما ذكره المناوي كمقدمة بين يدي البحث، مما يغني عن تكراره هنا، وقد أتبعتُ تلك الدراسة بدراسة مستقلة أخرى بعنوان: **«مسائل علم البيان في الحديث النبوي من خلال كتاب (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للمناوي»**.

وهذا البحث يأتي ليكشف عن جوانب جديدة من البيان النبوي، وذلك في ما يتعلَّق بمسائل علم البديع وبعض القضايا النقدية من خلال كتاب **(فيض القدير شرح الجامع الصغير)** للمناوي.

---

(١) مصادر ترجمته: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٤/٦٥ ـ ٦٧)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط (١٠/٧٤ ـ ٧٨)، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (١/٣٢٨)، دار المعرفة، بيروت. هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين، للبغدادي، (٥/٥٣٤ ـ ٥٤٤)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. الأعلام للزركلي (٣/٣٠١ ـ ٣٠٢)، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م، بيروت. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة (٥/١٢٨ ـ ١٣١) مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) مصادر ترجمته: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي، (٢/٤١٢ ـ ٤١٦)، دار صادر، بيروت. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (١/٣٥٧). هدية العارفين للبغدادي (٥/٥١٠ ـ ٥١١). الأعلام للزركلي (٦/٢٤٠). معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة (٥/٢٢٠ ـ ٢٢١).

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من فصلين وخاتمة.

الفصل الأول: **مسائل علم البديع.**

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المحسنات المعنوية.

المبحث الثاني: المحسنات اللفظية.

الفصل الثاني: **مسائل عامة تتعلق بالبلاغة والنقد.**

ويتضمن هذا الفصل أربعة مباحث:

المبحث الأول: الموقف من الشعر.

المبحث الثاني: موقف النبي ﷺ من البيان.

المبحث الثالث: خصائص البيان النبوي.

المبحث الرابع: البلاغة القرآنية والإعجاز.

وقد قسمتُ هذه المباحث إلى فقرات بحسب ما يتلاءم مع طبيعة كل مبحث.

ثم تأتي *الخاتمة*: وفيها نتائج البحث، ونذيِّل البحث بقائمة المصادر والمراجع.

وأما المنهج الذي اتبعته فيتلخص بالآتي:

١ - أخذنا شروح الأحاديث الصحيحة والحسنة وتركنا الضعيفة.

٢ - إذا رمز السيوطي للحديث بالصحة ورمز له الشارح بالضعف واستدرك على السيوطي، فإني آخذ بقول الشارح وأستبعد الحديث.

٣ - قمتُ بجمع المادة العلمية وتنظيمها وترتيبها على مباحث علم البديع، أو القضايا النقدية التي تتناولها، واستبعدتُ المكرر منها.



٤ ـ وثَّقتُ نقول المناوي في مظانِّها الأصلية قدر المستطاع.

٥ ـ قارنتُ قول الشارح بأقوال علماء البلاغة قبله.

٦ ـ ناقشتُ الشارح في بعض المسائل العلمية التي تقتضي المناقشة.

أسأل الله أن ينفع بهذا البحث، وأن يلهمنا الصواب في القول والعمل.



الفصل الأول:

مسائل علم البديع

كثيراً ما ترد المحسنات البديعية في الحديث النبوي، وقد كانت ترد عفواً دون قصد إليها، وهي تؤدي دوراً أساسياً في الكلام، وهذا ما سنوضحه في هذا الفصل، وفيه مبحثان:

المبحث الأول:
المحسنات المعنوية

ذكر المناوي عدداً من المحسنات البديعية المعنوية في الحديث النبوي، من ذلك:

أولاً: الطباق والمقابلة:

وذكرهما عند قول النبي ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**[1]، فقال: «فيه من أنواع البديع مقابلة الضحك بالبكاء، والقلة بالكثرة، ومطابقة كل منهما بالآخر»[2].

ثانياً: التفنن:

وذكره المناوي عند قول النبي ﷺ: **«ولا يملأ جوف ابن آدم إلا**

(١) من حديث أخرجه الحاكم عن أبي ذر، انظر: الجامع الصغير (٣١٦/٥).
(٢) فيض القدير (٣١٦/٥).



التراب»[1]، فقال: «وفي رواية: **«نفس»** بدل **«جوف»**، وفي أخرى: **«ولا يسدّ جوف»**، وفي أخرى: **«ولا يملأ عين»**، وفي أخرى: **«ولا يملأ فاه»**، وفي أخرى: **«ولا يملأ بطنه»**، وليس المراد عضواً بعينه، والغرض من العبارات كلها واحد، وهو من التفنن في العبارة، ذكره الكرماني»[2].

ومن هذا القبيل أيضاً: قول النبي ﷺ: **«القيد سوط أحدكم من الجنة خير مما بين السماء والأرض»**[3]، قال المناوي: «وقال بعضهم: جاء في رواية: **«لقاب قوس»** وفي رواية: **«لشبر»**، وفي أخرى: **«القيد»**، وفي أخرى: **«لموضع قدم»**، وبعض هذه المقادير أصغر من بعض، فإن الشبر أو القدم أصغر من السوط، لكن المراد تعظيم شأن الجنة وأن اليسير منها وإن قلَّ قدره خير من مجموع الدنيا بحذافيرها، وقال في هذه الرواية: **«خير مما بين السماء والأرض»**، وفي أخرى: **«خير من الأرض وما عليها»**، وفي أخرى: **«من الدنيا وما فيها»**، وفي أخرى: **«مما طلعت عليه الشمس أو غربت»**، وكلها ترجع إلى معنى واحد، فإن كلَّ ما بين السماء والأرض تطلع عليه الشمس وتغرب، وهو عبارة عن الدنيا بما فيها»[4].

ثالثاً: الالتفات[5]:

ذكره المناوي عند قول النبي ﷺ: **«إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولِّها ظهره، ولكن شرِّقوا أو غرِّبوا»**[6]، فقال: «**«شرِّقوا أو غرِّبوا»** فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وهو لأهل المدينة ومن قبلتهم على سمتهم»[7].

---

(١) من حديث أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي عن أنس، انظر: الجامع الصغير (٥/٣٢٧).
(٢) فيض القدير (٥/٣٢٧).
(٣) أخرجه أحمد عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٥/٢٨٢).
(٤) فيض القدير (٥/٢٨٢).
(٥) انظر: الإيضاح، للخطيب القزويني (١/١٥٧).
(٦) أخرجه الشيخان وأصحاب السنن عن أبي أيوب، انظر: الجامع الصغير (١/٢٣٩)
(٧) فيض القدير (١/٢٣٩).

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**[1]، قال المناوي: «فإن قلت: كان القياس: يلونكم ثم الذين يلونهم، فالجواب أن الأول التفات والثاني على الأصل»[2].

رابعاً: المذهب الكلامي:

ومنه قول النبي ﷺ: **«فمن أعدى الأول»**[3]، ولم يصرح المناوي بذكر المصطلح، ولكنه قال: «قاله لمن استشهد على العدوى بإعداء البعير الأجرب للإبل، وهو من الأجوبة المسكتة البرهانية التي لا يمكن دفعها، إذ لو جلبت الأدواء بعضها، لزم فقد الداء الأول لفقد الجالب، فقطع التسلسل وأحال على حقيقة التوحيد الكامل الذي لا معدل عنه، فهو جواب في غاية الرشاقة والبلاغة»[4]. ورسول الله ﷺ أبعد الناس عن أقاويل الفلاسفة ومذاهب المتكلِّمين، وإن كان كلامه كلّه مصبوباً في قالب العقل، ودينه قائم على العقل، ولم تكن ثمة عبادة في دينه أفضل من التفكير، فما جاء من كلامه متوافقاً مع كلامهم فإنه بسبب نور الوحي وأصالة الرأي، ليس إلا.

خامساً: التجريد:

ومنه قول النبي ﷺ: **«إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، وإنما هي أوساخ الناس»**[5]، قال المناوي: «قال الطيبي: وقد اجتمع في هذا التركيب مبالغات شتى، حيث جعل المشبه به أوساخ الناس للتهجين والتقبيح بتغيّر أو استقذار، وجلّ حضرة صاحب الرسالة ومعدن الطهارة أن ينسب إلى

---

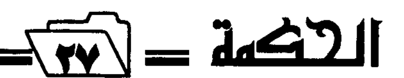
(١) من حديث أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمران بن حصين، انظر: الجامع الصغير (٤٩٧/٣).

(٢) فيض القدير (٤٩٧/٣).

(٣) أخرجه الشيخان وأبو داود عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٤٤٤/٤).

(٤) فيض القدير (٤٤٤/٤).

(٥) أخرجه مسلم وأحمد عن عبدالمطلب بن ربيعة، انظر: الجامع الصغير (٣٦٢/٢).



ذلك، ولذلك جرد من نفسه الطاهرة من يسمى محمداً كأنه غيره وهو هو فإن الطيبات للطيبين، ولا يقال كيف أباحها لبعض أمته، ومن كمال الإيمان أن يحبَّ المرء لأخيه ما يحبّ لنفسه، لأنا نقول: ما أباحها لهم عزيمة بل اضطراراً، وكم أحاديث نراها ناهية عن السؤال»[١].

ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء في قول فاطمة رضي الله عنها: (كان إذا دخل المسجد قال: **«باسم الله والسلام على رسول الله»**)[٢]، قال المناوي: «أبرز اسمه الميمون على سبيل التجريد عند ذكره التجاء إلى منصب الرسالة ومنزلة النبوة، وتعظيماً لشأنها كأنه غيره امتثالاً لأمر الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٦]»[٣].

سادساً: المشاكلة:

ومنها ما جاء في قول النبي ﷺ: **«ومثل المهجر كمثل الذي يهدي بدنة، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كالذي يهدي الكبش، ثم كالذي يهدي الدجاجة، ثم كالذي يهدي البيضة»**[٤]، قال المناوي: «واستشكل التعبير بالهدي في دجاجة وبيضة بأنه لا يكون منهما، وأجيب بأنه من باب المشاكلة أي من تسمية الشيء باسم قرينه»[٥].

ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء في قول النبي ﷺ: **«عليكم من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملُّوا»**[٦]، قال المناوي: «وقال التوربشتي:

---

(١) فيض القدير (٢/٣٦٢).
(٢) من حديث أخرجه أحمد وابن ماجه والطبراني عن فاطمة الزهراء، انظر: الجامع الصغير (٥/١٢٩).
(٣) فيض القدير (٥/١٢٩).
(٤) من حديث أخرجه الشيخان والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (١/٤٢٢).
(٥) فيض القدير (١/٤٢٢).
(٦) أخرجه الطبراني عن عمران بن حصين، انظر: الجامع الصغير (٤/٣٥٤).

إسناد الملال إلى الله على طريق الازدواج والمشاكلة، والعرب تذكر أحد اللفظين موافقة للأخرى وإن خالفتها معنى، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال الشاعر[١]:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولا يفتخر ذو عقل بجهل، وإنما أراد: فنجازيه بجهله ونعاقبه على سوء صنيعه»[٢].

ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء في قول النبي ﷺ: **«من آوى ضالة فهو ضال، ما لم يعرفها»**[٣]، قال المناوي: «**(فهو ضال)** عن طريق الصواب، أو آثم، أو ضامن إن هلكت عنده، عبَّر به عن الضمان للمشاكلة، وذلك لأنه إذا التقطها فلم يعرفها فقد أضرَّ بصاحبها، وصار سبباً في تضليله عنها، فكان ضالاً عن الحق»[٤].

سابعاً: اللف والنشر:

ومنه ما جاء في قول النبي ﷺ: **«قل: اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»**[٥]، قال المناوي: «**(أنت الغفور الرحيم)**: كل من الوصفين للمبالغة، وقابل اغفر بالغفور، وارحم بالرحيم، فالأول راجع إلى

---

(١) لعمرو بن كلثوم في معلقته، انظر: شرح القصائد العشر، للتبريزي، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، ص ٣٦٦، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
(٢) فيض القدير (٤/٣٥٤).
(٣) أخرجه أحمد ومسلم عن زيد بن خالد، انظر: الجامع الصغير (٦/٢٠).
(٤) فيض القدير (٦/٢٠).
(٥) أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر وعن أبي بكر، انظر: الجامع الصغير (٤/٥٢٣).

«اغفر لي»، والثاني إلى **«ارحمني»** فهو لفٌّ ونشر مرتب، فهذا عبد اعترف بالظلم، ثم التجأ إليه مضطراً لا يجد لذنبه ساتراً غيره، ثم سأله المغفرة»[١].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليَّ وعليَّ»**[٢]، قال المناوي: **««فإليَّ وعليَّ»** أي: فأمر كفالة عياله إليَّ وعليَّ قضاء دينه، لف ونشر غير مرتب»[٣].

ثامناً: التقسيم[٤]:

ومنه قول النبي ﷺ: **«عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلتُ: لا يا رب، ولكني أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعتُ تضرَّعتُ إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ حمدتُك وشكرتُك»**[٥].

نقل المناوي عن الطيبي قوله: «هذا وارد على منهج التقسيم، وهو ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل على التعيين، فذكر أولاً جوعه وشبعه في أيامها، ثم أضاف إلى الأول ما له من التضرع والدعاء، وللثاني من الحمد والثناء، بقوله: **«فإذا جعتُ تضرعتُ إليك»** بذلّة وخضوع، **«وذكرتك»** في نفسي وبلساني، **«وإذا شبعتُ حمدتك وشكرتك»** عطفه على ما قبله لما بينهما من عموم الأول مورداً، وخصوصه متعلّقاً، وخصوص الثاني مورداً، وعمومه متعلّقاً، وجمع في القرينتين بين الصبر والشكر، وهما صفتا المؤمن الكامل المخلص ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، ثم حكمة هذا التفصيل الاستلذاذ بالخطاب، وإلا فإنه عالم بالأشياء جملة

---

(١) فيض القدير (٤/٥٢٣).

(٢) من حديث أخرجه مسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه عن جابر، انظر: الجامع الصغير (٢/١٧٢).

(٣) فيض القدير (٢/١٧٢).

(٤) انظر: الإيضاح (٢/٥٠٦).

(٥) أخرجه أحمد والترمذي عن أبي أمامة، انظر: الجامع الصغير (٤/٣١١).

وتفصيلاً، وهذا يعرِّفك بما كان عليه من ضيق العيش والتقلُّل منه لم يكن اضطرارياً، بل اختياراً مع إمكان التوسّع والتبسط»[1].

تاسعاً: المبالغة:

ومنها ما جاء في قول النبي ﷺ: **«أثردوا ولو بالماء»**[2]، قال المناوي: «**«ولو بالماء»**: مبالغة في تأكيد طلبه، والمراد: ولو مرقاً يقرب من الماء»[3].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«إذا دعيتم إلى كراع فأجيبوا»**[4]، قال المناوي: «أي كراع شاة وهو يدها على ما قال الجمهور، أو كراع الغميم بمعجمة محل بين الحرمين، أو جانب مستطيل من الحرم على ما قاله شرذمة وغلطهم الأولون... **«فأجيبوا»** ندباً، فالمعنى الأول إذا دعيتم إلى طعام ولو قليلاً كيد شاة فأجيبوا، وعلى الثاني: إذا دُعيتم إلى محل ولو بعيداً كالموضع المذكور فأجيبوا، وليست القلة أو البعد عذراً، فأطلق ذلك على طريق المبالغة في الإجابة وإن بعد، لكن المبالغة في الإجابة مع حقارة الشيء أوضح في المراد، ولذلك ذهب الجمهور إلى الأول»[5].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«رحم الله حمير: أفواههم سلام، وأيديهم طعام»**[6]، قال المناوي: «يعني أفواههم لم تزل ناطقة

---

(١) فيض القدير (٤/٣١١، ٣١٢).

(٢) من حديث أخرجه الطبراني في الأوسط، والبيهقي عن أنس، انظر: الجامع الصغير (١/١٤٨).

(٣) فيض القدير (١/١٤٨).

(٤) أخرجه مسلم عن ابن عمر، انظر: الجامع الصغير (١/٣٤٧).

(٥) فيض القدير (١/٣٤٧).

(٦) من حديث أخرجه أحمد والترمذي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٤/٢١).



بالسلام على كلٍّ من لقيهم إيناساً وخيراً، وأيديهم ممتدة بمناولة الطعام للضيف والجائع، فجعل الأفواه والأيدي نفس السلام والطعام لمزيد المبالغة»[1].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب»**[2]، قال المناوي: «**«فإنه عمر بن الخطاب»** كأنه جعله في انقطاع قرينه في ذلك كأنه نبي، فلذلك أتى بلفظ **«إن»** بصورة الترديد، قال القاضي: ونظير هذا التعليق في الدلالة على التأكيد والاختصاص قولك: إن كان لي صديق فهو زيد، فإن قائله لا يريد به الشك في صداقته، بل المبالغة في أن الصداقة مختصة به لا تتخطاه إلى غيره»[3].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«صيام يوم عرفة إني أحتسب على الله أن يكفِّر السنة التي قبله والسنة التي بعده»**[4]، قال المناوي: «قال الطيبي: وكان القياس أن يقول: أرجو من الله فوضع محله **«أحتسب»**، وعداه بـ **«على»** التي للوجوب على سبيل الوعد مبالغة في تحقق وصوله»[5].

عاشراً: الأسلوب الحكيم:

ومنه قول النبي ﷺ: **«أملك يدك»**[6]، قال المناوي: «قال الطيبي: هذا وما بعده من أسلوب الحكيم، سأله رجل عن حقيقة النجاة، فأجابه عن

---

(١) فيض القدير (٤/٢١).

(٢) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة، وأحمد مرة أخرى ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة، انظر: الجامع الصغير (٤/٥٠٧).

(٣) فيض القدير (٤/٥٠٧).

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أبي قتادة، انظر: الجامع الصغير (٤/٢٣٠).

(٥) فيض القدير (٤/٢٣٠).

(٦) من حديث أخرجه البخاري في التاريخ عن أسود بن أصرم، انظر: الجامع الصغير (٢/١٩٦).

سببه، لأنه أهم بحاله، وأخرجه على سبيل الأمر المقتضي للوجوب زيادة في التقرير والتقريع»[١].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«أملك عليك لسانك، وليسَعْك بيتك، وابكِ على خطيئتك»**[٢]، قال المناوي يذكر سبب الحديث: «عن عقبة بن عامر الجهني قال: لقيتُ رسول الله ﷺ فقلت: ما النجاة؟ قال: **«أملك...»** إلخ، وهذا الجواب من أسلوب الحكيم، سأل عن حقيقة النجاة، فأجابه عن سببه لأنه أهم بحاله وأولى، وكان الظاهر أن يقول: حفظ اللسان، فأخرجه على سبيل الأمر المقتضي للوجوب مزيداً للتقرير والاهتمام»[٣].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«إذا بلغ الماء قلّتين لم يحمل الخبث»**[٤]، قال المناوي: «وفي الخبر من البلاغة والفخامة ما لا يخفى، فإنه سئل عن الماء وما ينوبه من الدواب والسباع، فأورد الجواب معلّلاً بذكر السبب المانع من نجاسته وهو بلوغ قلّتين، ولو أجابه بأنه طاهر أو نجس حصل الغرض، لكنه عدل إلى الجواب المعلّل المحدَّد لما فيه من زيادة البيان وتقرير البرهان، وأنه لو لم يحدَّه بذلك استوى القليل والكثير في الحكم، وذلك في محل الإبهام، ذكره ابن الأثير وغيره»[٥].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»**[٦]، قال المناوي: «قاله جواباً لمن سأل: أي الناس خير؟ و**«طوبى»**

---

(١) فيض القدير (٢/١٩٦).

(٢) من حديث أخرجه الترمذي عن عقبة بن عامر، انظر: الجامع الصغير (٢/١٩٧).

(٣) فيض القدير (٢/١٩٧).

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيره عن ابن عمر، انظر: الجامع الصغير (١/٣١٢).

(٥) فيض القدير (١/٣١٢).

(٦) أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن عبدالله بن بسر، انظر: الجامع الصغير (٤/٢٨١).



كلمة إنشاء لأنها دعاء معناها أصاب الخير من طال عمره وحسن عمله، وكان الظاهر أن يجاب بقوله: من طال، فالجواب من الأسلوب الحكيم، أي غير خافٍ أن خير الناس من طال عمره وحسن عمله»[1].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«خير البقاع المساجد، وشرُّ البقاع الأسواق»**[2]، قال المناوي: «قرن المساجد بالأسواق مع أن غيرها قد يكون شرّاً منها ليبيِّن أن الدين يدفعه الأمر الدنيوي، فكأنه قيل: خير البقاع مخلصة لذكر الله مسلمة من الشوائب الدنيوية، فالجواب من أسلوب الحكيم، فإنه سئل: أي البقاع خير؟ فأجاب به وبضدِّه، وسبق أن هذا وصف المحل بما يقع فيه»[3].

أحد عشر: تجاهل العارف:

قول النبي ﷺ: **«إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي»**[4]، قال المناوي: «قال ابن الكمال: هذا ليس بإخبار عن مفهومه اللغوي، لأنه خالٍ عن فائدة الخبر ولازمها، نظير: **«إنها لابنة أبي بكر»**، وقال الأكمل: نزل المخاطبين العالمين بكونه ابنه منزلة المنكر الجاهل، وهو الذي يسمِّيه البيانيون تجاهل العارف، لنكتة هي التلويح بأن إبراهيم ابن ذلك النبي الهادي جزء منه، فلذلك تميَّز على غيره بما سيذكر»[5].

اثنا عشر: التكميل:

وهو يتابع الطيبي فيه، ومدلوله عنده بمعنى التتميم عند الخطيب

---

(١) فيض القدير (٢٨١/٤).
(٢) أخرجه الطبراني والحاكم عن ابن عمر، انظر: الجامع الصغير (٤٧٠/٣).
(٣) فيض القدير (٤٧٠/٣).
(٤) من حديث أخرجه مسلم وأحمد عن أنس، انظر: الجامع الصغير (٤٠٦/٢).
(٥) فيض القدير (٤٠٦/٢).

القزويني[1]، فعند قول النبي ﷺ: **«أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، واضربوا الهام، تورثوا الجنان»**[2]، قال المناوي: «قال الطيبي: والحديث من باب التكميل، كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إذ تخصيص الهام بالضرب يدلّ على بطالتهم وشدة ضربتهم»[3].

ثلاثة عشر: التعليق[4]:

ومنه ما جاء في قول النبي ﷺ: **«اتقوا دعوة المظلوم»**[5]، قال المناوي: «أي اجتنبوا دعوة من تظلمونه، وذلك مستلزم لتجنُّب جميع أنواع الظلم على أبلغ وجه وأوجز إشارة وأفصح عبارة، لأنه إذا اتقى دعاء المظلوم لم يظلم، فهو أبلغ من قوله: لا تظلم، وهذا نوع شريف من أنواع البديع يسمى تعليقاً»[6].

أربعة عشر: التتميم:

وهو يتابع الطيبي فيه، ويقصد به ما يعنيه الخطيب القزويني بالتكميل (الاحتراس)[7]، ومنه قول النبي ﷺ: **«أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»**[8]، قال المناوي: «**«وذكر الله»** قال الطيبي: هذا من باب التتميم،

---

(١) انظر: الإيضاح (٣١٣/١). والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان، للطيبي، تحقيق: د. هادي الهلالي، ص ٣٧٣، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م.
(٢) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٢٣/٢).
(٣) فيض القدير (٢٣/٢).
(٤) انظر: تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، ص ٤٤٣.
(٥) من حديث أخرجه الطبراني عن خزيمة بن ثابت، انظر: الجامع الصغير (١٤١/١).
(٦) فيض القدير (١٤١/١).
(٧) انظر: الإيضاح (٣١٠/١). والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان، للطيبي، تحقيق: د. هادي الهلالي، ص ٣٧٧.
(٨) أخرجه مسلم وأحمد عن نبيشة، انظر: الجامع الصغير (١٣٥/٣).

فإنه لما أضاف الأكل والشرب إلى الأيام أوهم أنها لا تصلح إلا للدعة والأكل والشرب، لأن الناس في هذه الأيام ينبسطون، فتدارك بقوله: «وذكر الله» لئلا يستغرقوا أوقاتهم باللذات النفسانية، فينسوا نصيبهم من الروحانية، ونظيره في التتميم[1]:

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب السحاب وديمة تهمي»[2]

ومن هذا القبيل أيضاً قول عائشة ﷺ: (كان إذا رأى مطراً قال: «اللهمّ صيّباً نافعاً»)[3]، قال المناوي: «أي اسقِنا صيّباً، وقوله: «نافعاً» تتميم في غاية الحسن، لأن لفظة «صيباً» مظنة للضرر والفساد، قال في «الكشاف»: الصيب: المطر الذي يصوّب أي ينزل ويقع، وفيه مبالغات من جهة التركيب والبناء والتكثير، دلّ على أنه نوع من المطر شديد هائل، فتبعه بقوله: «نافعاً» صيانة عن الإضرار والفساد، ونحوه قوله:

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمي

لكن «نافعاً» في الحديث أوقع وأحسن من مفسدها»[4].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ لأم هانىء: «سبِّحي الله مائة تسبيحة فإنها تعدل لك مائة رقبة من ولد إسماعيل»[5]، قال المناوي: «وهذا تتميم ومبالغة في معنى العتق، لأن فكَّ الرقبة أعظم مطلوب، وكونه من عنصر إسماعيل الذي هو أشرف الناس نسباً أعظم وأمثل»[6].

---

(١) البيت لذي الرمة، وهو من شواهد التكميل كما ورد التلخيص للخطيب القزويني، ص ٢٣٠.
(٢) فيض القدير (١٣٥/٣).
(٣) أخرجه البخاري عن عائشة، انظر: الجامع الصغير (١٣٤/٥).
(٤) فيض القدير (١٣٤/٥).
(٥) من حديث أخرجه أحمد والطبراني والحاكم عن أم هانىء، انظر: الجامع الصغير (٨٧/٤).
(٦) فيض القدير (٨٧/٤).



ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«ردّوا السائل ولو بظلف محرق»**[(١)]، قال المناوي: «**«لو»** للتقليل، والمراد الرد بالإعطاء، والمعنى تصدَّقوا بما تيسَّر كثر أو قلَّ ولو بلغ في القلة الظلف مثلاً، فإنه خير من العدم... وقال الطيبي: هذا تتميم لإرادة المبالغة في ظلف كقولها[(٢)]:

كــأنــه عــلــم فــي رأسِــهِ نــارُ

يعني لا تردُّوه ردَّ حرمان بلا شيء ولو أنه ظلف، فهو مَثل ضرب للمبالغة»[(٣)].

خمسة عشر: الترقي[(٤)]:

ومنه ما جاء في قول النبي ﷺ: **«اللهمَّ إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء»**[(٥)]، قال المناوي: «قال الرشيدي: وعطف العمل على الخلق، والهوى على العمل، والداء عليها، وإن كان الكل على الأول، من باب الترقي في الدعاء إلى ما يعمُّ نفعه»[(٦)].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«الشهداء خمسة: المطعون والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله»**[(٧)]، قال

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ وأحمد عن حواء بنت السكن، انظر: الجامع الصغير (٤/٣١).

(٢) عجز بيت للخنساء في أخيها صخر، وصدره: (وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ بهِ)، وهو من شواهد الإيغال كما ورد في التلخيص للخطيب القزويني، ص ٢٢٦.

(٣) فيض القدير (٤/٣١).

(٤) انظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، للطيبي، تحقيق: د.هادي الهلالي، ص ٣٨١.

(٥) أخرجه الترمذي والطبراني والحاكم عن قطبة بن مالك، انظر: الجامع الصغير (٢/١١٠).

(٦) فيض القدير (٢/١١١).

(٧) أخرجه الشيخان والترمذي ومالك عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٤/١٧٩).



المناوي: «**«والشهيد»**: أي القتيل، **«في سبيل الله»** أخَّره لأنه من باب الترقي من الشهيد الحكمي إلى الحقيقي»[(١)].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ في دعائه: **«أعوذُ بك من شرّ نفسي، ومن شرّ الشيطان وشركه»**[(٢)]، قال المناوي: «فإن قلت: لم قدَّم الاستعاذة من شرّ النفس مع أن شرّ الشيطان أهم في الدفع لأن كيده ومحاربته أشد من النفس، لأن شرّها وفسادها إنما ينشأ من وسوسته، ومن ثمَّ أفردت له في التنزيل سورة تامة، بخلافها؟ قلت: الظاهر أنه جعله من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى»[(٣)].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي؟ فليخلقوا حبة، أو ليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا شعيرة»**[(٤)]، قال المناوي: «وفيه نوع من الترقي في الخساسة ونوع من التنزل في الإلزام، وحكي أنه وقع السؤال عن حكمة الترقي من الذرة إلى الحبة إلى الشعيرة، فأجاب التقي الشمني بديهة بأن صنع الأشياء الدقيقة فيه صعوبة، والأمر بمعنى التعجيز، فناسب الترقي من الأعلى للأدنى، فاستحسنه الحافظ ابن حجر وزاد في إكرام الشيخ وإظهار فضيلته»[(٥)].

ستة عشر: التغليب[(٦)]:

ومنه ما جاء في قول النبي ﷺ: **«اقرأ المعوذات في دُبُر كلِّ**

---

(١) فيض القدير (١٧٩/٤).
(٢) من حديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٥٢١/٤).
(٣) فيض القدير (٥٢١/٤).
(٤) أخرجه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٤٨١/٤).
(٥) فيض القدير (٤٨٢/٤).
(٦) انظر: الإيضاح (١٨١/١).

صلاة»[1]، قال المناوي: «**«اقرأ المعوذات»**: الفلق والناس ذهاباً إلى أن أقلَّ الجمع اثنان أو: والإخلاص تغليباً»[2].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: «**بين كل أذانين صلاة لمن شاء»**[3]، قال المناوي: «**«بين كل أذانين»**: أي أذان وإقامة، فحمل أحد الاسمين على الآخر شائع سائغ كالقمرين، ذكره الزمخشري، وتبعه القاضي فقال: غلب الأذان على الإقامة وسمَّاها باسم واحد»[4].

سبعة عشر: التوشيع[5]:

ومنه ما جاء في قول النبي ﷺ: «**قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: طول الحياة وكثرة المال»**[6]، قال المناوي: «وفيه من أنواع البديع التوشيع، وهو الإتيان بمثنى وتعقيبه بمفردين»[7].

ثمانية عشر: التذييل[8]:

ومنه ما جاء في قول النبي ﷺ: «**إن الرجل ليعمل عمل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها»**[9]، قال المناوي:

---

(١) أخرجه أبو داود وابن حبان عن عقبة بن عامر، انظر: الجامع الصغير (٦٢/٢).
(٢) فيض القدير (٦٢/٢).
(٣) أخرجه الستة وأحمد عن عبدالله بن مغفل، انظر: الجامع الصغير (٢٠٩/٣).
(٤) فيض القدير (٢٠٩/٣).
(٥) انظر: الإيضاح (٣٠٧/١).
(٦) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٥٢٤/٤).
(٧) فيض القدير (٥٢٥/٤).
(٨) انظر: الإيضاح (٣٠٧/١).
(٩) من حديث أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد، وقوله: **«إنما الأعمال بخواتيمها»** في البخاري فقط، انظر: الجامع الصغير (٣٣٠/٢).



«**وإنما الأعمال بخواتيمها**» فعلى الخاتمة سعادة الآخرة وشقاوتها.. وقال الزمخشري: هذا تذييل للكلام السابق مشتمل على معناه لمزيد التقرير، أي إن العمل السابق غير معتبر، والمعتبر العمل الذي ختم به»(١).

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: «**دخلت الجنة فسمعتُ فيها قراءة، فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، كذلكم البر، كذلكم البر**»(٢)، قال المناوي: «قال الطيبي: «**كذلكم البر، كذلكم البر**»: المشار إليه ما سبق، والمخاطبون الصحابة، فإن المصطفى ﷺ رأى هذه الرؤيا وقصَّها على أصحابه، فلما بلغ إلى قوله: «**النعمان**» نبَّههم على سبب نيل تلك الدرجة، بقوله: «**كذلكم البر**» أي حارثة نال تلك الدرجة بسبب البر، وموقع هذه الجملة التذييل كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]»(٣).

تسعة عشر: الاطراد(٤):

ولم يذكره بلفظه وإنما ذكره بمعناه، عند قول النبي ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»(٥)، قال المناوي: «وهذا من تتابع الإضافات، لكنه غير مستكره، قال في دلائل الإعجاز عازياً إلى الصاحب بن عباد: إياك والإضافات المتداخلة، فإنها لا تحسن(٦)، لكنه إذا سلم من الاستكراه ملح ولطف»(٧).

---

(١) فيض القدير (٢/٣٣١).

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم عن عائشة، انظر: الجامع الصغير (٣/٥١٩).

(٣) فيض القدير (٣/٥١٩).

(٤) مبحث الاطراد والحديث النبوي التالي في الإيضاح للقزويني (١/٧٨ و٢/٥٣٥).

(٥) أخرجه البخاري وأحمد عن ابن عمر، انظر: الجامع الصغير (٥/٦٤).

(٦) في الدلائل: «فإن ذلك لا يحسن»، وإلى هنا انتهى كلام الصاحب، وبقية الكلمة لعبدالقاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، ص ١٠٤. والحديث النبوي في الإيضاح للقزويني (١/٧٨ و٢/٥٣٥).

(٧) فيض القدير (٥/٦٤).

المبحث الثاني:
المحسنات اللفظية

أولاً: الجناس:

ومنه قول النبي ﷺ: **«اتركوا الترك ما تركوكم»**[1]. قال المناوي: «أي لا تتعرضوا لهم مدة تركهم لكم، وخصّوا لشدة بأسهم وبرد بلادهم، ففي غزوهم مشقة، فإن لم يتركونا بأن دخلوا دارنا فقتالهم فرض عين، وفيه من أنواع البديع جناس الاشتقاق»[2].

ومن هذا القبيل أيضاً قول النبي ﷺ: **«غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله، وعصية عصت الله ورسوله»**[3]، قال المناوي: «قوله: **«غفر الله لها»** و**«سالمها»** خبرين أريد بهما الدعاء، أو هما خبران على بابهما»[4]، ويضيف منوهاً بالجناس في هذا الحديث: «وما أحسن هذا الجناس وألذّه على السمع وأعلقه بالقلب»[5].

ثانياً: الازدواج:

ومنه قول النبي ﷺ: **«أنفق يا بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً»**[6]، قال المناوي: «قال الطيبي: الذي يقتضيه مراعاة السجع أن يوقف على بلال وإقلال بغير ألف، وإن كتب بالألف ليزدوجا كما في

(١) من حديث أخرجه الطبراني بسند حسن في الأوسط والصغير، عن ابن مسعود، انظر: الجامع الصغير (١/١١٧).
(٢) فيض القدير (١/١١٧).
(٣) أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي عن ابن عمر، انظر: الجامع الصغير (٤/٤٠٥).
(٤) فيض القدير (٤/٤٠٥).
(٥) فيض القدير (٤/٤٠٥).
(٦) أخرجه البزار عن بلال والطبراني عن ابن مسعود، انظر: الجامع الصغير (٣/٦١).



قولهم: آتيك بالغدايا والعشايا، وقوله: **«ارجعنَ مأزورات غير مأجورات»**[1].

ثالثاً: التسجيع:

ومنه قول النبي ﷺ: **«اللهمَّ إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، وأعوذ بك من هؤلاء الأربع»**[2]، ينقل المناوي عن الطيبي قوله: «فإن قلت: قد علم من صدر الكلام الاستعاذة مما ذكر، فما فائدة قوله: **«أعوذ بك من هؤلاء الأربع»**؟ قلت: أفاد به التنبيه على توكيد هذا الحكم وتقويته»[3].

ويضيف بعد ذلك مبيناً حكم السجع، وأنه جائز إذا لم يكن متكلفاً، وأنه كان يأتي في البيان النبوي على أحسن صورة ومن دون تكلّف، فيقول: «وفيه جواز تسجيع الدعاء، قال حجة الإسلام: والمكروه التكلّف لأنه لا يلائم الضراعة والذلّة، قال ابن حجر: هذا كان يصدر منه من غير قصد إليه، ولذلك جاء في غاية الانسجام»[4].

ولا بدَّ من وقفة هنا بشأن الموقف من السجع، فما ذمَّ منه هو ما استُعمل على طريقة الكهان، ولم يكن ذم السجع على عمومه، فعقب قول النبي ﷺ: **«أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، واضربوا الهام، تورثوا الجنان»**[5]، يقول المناوي عن موقف النبي ﷺ من السجع: «وقال بعضهم: جمع المصطفى ﷺ بين هذه القرائن المتعددة إشارة إلى جواز التسجيع،

(١) فيض القدير (٣/٦١).
(٢) أخرجه الترمذي والنسائي عن ابن عمرو، وأبو داود والحاكم وابن ماجه والنسائي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٢/١٠٨).
(٣) فيض القدير (٢/١٠٨، ١٠٩).
(٤) فيض القدير (٢/١٠٩).
(٥) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٢/٢٣).

لكن شرطه عدم التكلّف بدليل قوله في خبر آخر: «**أسجع كسجع الكهان**»[1] وذمَّ المستشرفين بإظهار فصاحتهم لصرف الوجوه إليهم، وحاشا المصطفى ﷺ عن قصد ذلك، بل إذا قصد البيان لدين الله سمح طبعه الزكي وعنصره العربي بترادف قرائن لكمال فصاحته بغير تكلّف في استخراجها»[2].

ويذكر المناوي في مواضع عدة جواز السجع، فقال عقب قول النبي ﷺ: «**رباط شهر خير من صيام دهر**»[3]: «فيه جواز السجع وحسن موقعه سيما إذا كان غير مقصود ولا تكلُّف كما هنا»[4].



(١) الخبر في كتاب الصناعتين، ص ٢٨٦، وإعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد صقر، ص ٥٨، والطراز للعلوي (٣/٢٠).
(٢) فيض القدير (٢/٢٣ ـ ٢٤).
(٣) من حديث أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء، انظر: الجامع الصغير (٤/١٤).
(٤) فيض القدير (٤/١٤).



الفصل الثاني:

مسائل عامة تتعلق بالبلاغة والنقد

ويتضمن هذا الفصل أربعة مباحث:

المبحث الأول:
الموقف من الشعر

وردت بعض الأحاديث في ذمِّ الشعر، ووردت أخرى في استحسانه، وليس الذم مطلقاً، ولا المدح كذلك، وإنما بحسب ما يحمله الشعر من مضمون، والكلمة الفصل في موقف النبي من الشعر هو قول النبي ﷺ: **«الشّعر بمنزلة الكلام، فحسنُه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»**[1]، قال المناوي: «قال النووي: يعني الشعر كالنثر، فإذا خلا عن محذور شرعي فهو مباح، وقد قال عمر: نعم الهدية للرجل الشريف الأبيات يقدِّمها بين يدي حاجته، يستعطف بهنَّ الكريم، ويستذلّ بهن اللئيم، لكن التجرد له والاقتصار عليه مذموم كما في الأذكار»[2].

فالكلمة في الإسلام أمانة ومسؤولية، وهي قد تكون سلاحاً فتاكاً إذا استعملت في الشر، ومثل ذلك إذا استعملت في الخير، ولذلك مدح النبي ﷺ الشعر عندما يحمل الحكمة التي ترشد الناس في درب الحياة،

(١) أخرجه البخاري في الأدب والطبراني في الأوسط، انظر: الجامع الصغير (١٧٥/٤).
(٢) فيض القدير (١٧٥/٤).

فقال: **«إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً»**[1]، قال المناوي: «**«وإن من الشعر حكماً»**: جمع حكمة، أي قولاً صادقاً مطابقاً للحق، موافقاً للواقع، وذلك ما كان منه من قبيل المواعظ وذم الدنيا والتحذير من غرورها، ونحو ذلك. فبيَّن المصطفى ﷺ أن جنس البيان وإن كان محموداً ففيه ما يذمّ للمعنى السابق، وجنس الشعر وإن كان مذموماً ففيه ما يحمد لاشتماله على الحكمة، وعبَّر بـ «من» إشارة إلى أن بعضه ليس كذلك، وفيه ردٌّ على من كره مطلق الشعر»[2].

وفي سياق آخر نجده يذمّ الشعر، يقول النبي ﷺ: **«لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً حتى يريَه خير له من أن يمتلىء شعراً»**[3]، وقد نقل المناوي آراء العلماء في هذا الحديث، وهي جميعاً تتفق على أن الذمَّ يقع على حالات معينة، وليس مطلقاً، يقول: «قال القاضي: والمراد بالشعر ما تضمن تشبيباً أو هجاء أو مفاخرة كما هو الغالب في أشعار أهل الجاهلية، وقال بعضهم: ظاهره العموم في كل شعر، ولكنه مخصوص بما لم يشتمل على الذكر والزهد والمواعظ والرقائق مما لا إفراط فيه، وقال النووي: هذا الحديث محمول على التجرد للشعر بحيث يغلب عليه فيشغله عن القرآن والذكر، وقال القرطبي: من غلب عليه الشعر لزمه بحكم العادة الأدبية الأوصاف المذمومة، وعليه يحمل الحديث، وقول بعضهم عنى به الشعر الذي هجي به هو أو غيره رد بأن هجوه كفر، كثر أو قلَّ، وهجو غيره حرام وإن قلَّ، فلا يكون لتخصيص الذمِّ بالكثير معنى»[4].

الموقف من المديح:

والمديح هو أكثر الأغراض دوراناً في الشعر العربي، وللنبي ﷺ

(١) من حديث أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس، انظر: الجامع الصغير (٢/٥٢٤).
(٢) فيض القدير (٢/٥٢٤).
(٣) أخرجه الشيخان وأصحاب السنن وأحمد عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٥/٢٥٩).
(٤) فيض القدير (٥/٢٥٩).

موقف منه، حيث قال: «**احثوا التراب في وجوه المدّاحين**»[1]، ولهذا الحديث دلالات شتى ذكرها العلماء، وقد نقل المناوي أقوالهم، فقال: «عبر بصيغة المبالغة إشارة إلى أن الكلام فيمن تكرر منه المدح حتى اتخذه صناعة وبضاعة يتأكل بها الناس، وجازف في الأوصاف وأكثر الكذب، يريد لا تعطوهم على المدح شيئاً، فالحثي كناية عن الحرمان والرد والتخجيل، قال الزمخشري: «حثى في وجهه الرماد، إذا أخجله». أو المراد: قولوا لهم بأفواهكم التراب، والعرب تستعمل ذلك لمن يكرهونه، أو المراد: أعطوهم ما طلبوا، لأن كلَّ ما فوق التراب تراب، فشبه الإعطاء بالحثي على سبيل الترشيح والمبالغة في التقليل والاستهانة، وبهذا جزم البيضاوي، وقيل: هو على ظاهره فيرمي في وجوههم التراب، وجرى عليه ابن العربي، قال: وصورته أن تأخذ كفاً من تراب وترمي به بين يديه، وتقول: ما عسى أن يكون مقدار من خُلق من هذا؟ ومن أنا وما قدري؟ توبخ بذلك نفسك ونفسه، وتعرف المادح قدرك وقدره، هكذا فليحثِ التراب في وجوههم، قال: وقد كان بعض مشايخنا إذا رأى شخصاً راكباً ذا شارة يعظمه الناس وينظرون إليه، يقول لهم وله: إنه تراب راكب على تراب، وينشد:

حتى متى وإلى متى تتوانى   أتظن ذلك يا فتى نسيانا

قال النووي: ومدح الإنسان يكون في غيبته وفي وجهه، فالأول لا يمنع إلا إذا جازف المادح ودخل في الكذب، فيحرم للكذب لا لكونه مدحاً، ويستحب ما لا كذب فيه إن ترتبت عليه مصلحة ولم يجرَّ إلى مفسدة، والثاني قد جاءت أخبار تقتضي إباحته، وأخبار تقتضي منعه كهذا الخبر، وجمع بأنه إذا كان عند الممدوح كمال إيمان وحسن يقين ورياضة

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وابن عدي وأبو نعيم عن ابن عمر، انظر: الجامع الصغير (١/١٨٢).

بحيث لا يفتن ولا يغتر ولا تلعب به نفسه فلا يحرم ولا يكره، وإن خيف عليه شيء من ذلك كره مدحه»[1].

وخلاصة هذه الآراء أن هناك من ذهب إلى حرمان المادح من العطاء، وهناك من ذهب إلى عكسه، وهناك من فسَّره على ظاهره برمي التراب في وجه المادحين، وهذا بعيد، ولم يروَ عن الرسول ﷺ ولا أحد من خلفائه أو أصحابه أنهم فعلوا ذلك، بل ما روي في هذا الصدد أن بعضهم أثاب الشعراء، وغاية ما روي في هذا الموضوع ما ذكر عن عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لم يلتفت إلى بعض الشعراء الذين وقفوا ببابه[2]، فقد كان يرى حفظ ثروة الأمة، وألا تعطى لمن لا يستحقها سواء كان من الشعراء أو غيرهم، وأقرب الآراء هو ما ذهب إليه النووي من أن المديح من دون غلوٍّ ورفع للممدوح فوق رتبة البشر، فهو مستحبٌّ، وفي ما سوى ذلك فهو مكروه، وبخاصة إذا أدَّى بالممدوح إلى تضخّم الذات ورؤية نفسه فوق الآخرين.

الموقف من الهجاء:

والهجاء مرفوض في الإسلام إذا سبب الفرقة والعصبية وتمزيق لحمة الأمة، يقول النبي ﷺ: **«أعظم الناس فرية اثنان: شاعر يهجو القبيلة بأسرها، ورجل انتفى من أبيه»**[3]، قال المناوي يشرح الحديث ويبيِّن الهجاء المرفوض: «**«شاعر يهجو»** من الهجو **«القبيلة»** المسلمة **«بأسرها»** أي كلها، لإنسان واحد منهم كان منه ما يقتضيه، لأن القبيلة لا تخلو من رجل صالح، فهاجي الكل قد تورَّط على التحقيق، فلذلك قال: **«أعظم فرية»**»[4].

ويبيِّن المناوي أن الهجاء ليس كله على وتيرة واحدة في الإثم، وليس

---

(١) فيض القدير (١/١٨٢، ١٨٣). وانظر: أساس البلاغة، مادة «حثى».
(٢) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٢٢٢.
(٣) أخرجه ابن ماجه، وابن أبي الدنيا عن عائشة، انظر: الجامع الصغير (٢/٧).
(٤) فيض القدير (٢/٧).



كله مرفوضاً، فأهل الأهواء والبدع والكفر والشرك ممن يتباهى بكفره وفجوره يجوز هجوهم، يقول: «أما من هجا واحداً مثلاً من قبيلة، فإنه ليس أعظم الناس فرية، وإن كان مفترياً أيضاً، إذ يحرم هجو المسلم ولو تعريضاً، وكذباً وصدقاً، أما الكافر فيجوز هجوه، وكذا مسلم مبتدع، ومتظاهر بفسقه، ذكره أصحابنا»[(١)].

ويعضد ما ذهب إليه المناوي قول النبي ﷺ في شأن قريش: **«هجاهم حسان فشفى واشتفى»**[(٢)]، يقول المناوي عقب هذا الحديث: «وأفاد جواز هجو الكفار وإيذائهم ما لم يكن لهم أمان وأنه لا غيبة لهم»[(٣)]، والقضية ليست مجرد جواز إنشاد الهجاء في هذا الصدد، بل هي قد تكون أمراً وواجباً، فلقد حثَّ عليه السلام شاعره حسان على هجائهم، تقول عائشة: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً، يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ: **«إن الله يؤيِّد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ»**[(٤)].

وذلك لأن معركة الإسلام مع الشرك كانت باللسان كما بالسنان، ووظيفة الشاعر هنا أن يذود عن دينه ونبيِّه كما فعل حسان، ويهجو عصبة الشرك والطغيان التي تقف ضدَّ الحقِّ وأهله.

تمثُّل النبي ﷺ بالشعر:

وردت بعض الآثار تذكر تمثُّل النبي ﷺ ببعض الشعر من غير قصد، من ذلك قول النبي ﷺ: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب»**[(٥)]، يقول

(١) فيض القدير (٧/٢).
(٢) أخرجه مسلم عن عائشة، انظر: الجامع الصغير (٣٥٢/٦).
(٣) فيض القدير (٣٥٢/٦).
(٤) أخرجه البخاري، انظر: مشكاة المصابيح للتبريزي، بتحقيق الألباني (١٣٥٤/٣).
(٥) أخرجه الشيخان وأحمد والنسائي عن البراء، انظر: الجامع الصغير (٣٨/٣).

المناوي في هذا الصدد دافعاً لشبهة أن يكون الرسول ﷺ قد قال الشعر قصداً إليه: «ولا يشكل ذا بحرمة الشعر عليه، لأن هذا إنما هو من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة ولا تكلّف، إلا أنه إذا اتفق ذلك بغير قصد كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم، وإذا فتشت في كلِّ كلام عن نحو ذلك، وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز، ومنه في القرآن كثير، قال بعض شراح الشفاء: وذا عام في كلِّ نبي، لما في الشعر من الغلوِّ، قال الشافعي: الشعر يزري بالعلماء، فالنبوة أولى به»[1].

وقد ورد أيضاً أن النبي ﷺ تمثَّل ببيت لأمية بن أبي الصلت: «**إن تغفر اللهم تغفر جماً، وأي عبد لك لا ألمّا**»[2]، قال المناوي: «وهذا بيت لأمية بن أبي الصلت تمثل به المصطفى ﷺ، والمحرم عليه إنشاء الشعر لا إنشاده»[3].

والخلاصة أن طبع الرسول ﷺ لا يسمح له بقول الشعر، وإنما قد يتمثل به أحياناً، لأنه عربي فصيح سليم الطباع وسيد من نطق بالضاد، وفي تمثله به دليل على أن الإسلام لا يذمّ الشعر مطلقاً كما سلف، وحاشا لمثله ﷺ أن يحرم الشعر مطلقاً وهو يرى محبة العرب للشعر وولعهم به، ويرى ما تحمله بعض الأشعار من الحكمة والخير.

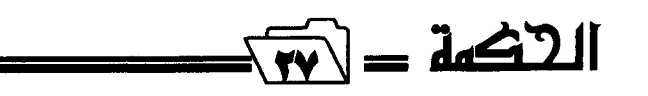
تفضيل الشعر بحسب مضمونه:

لقد فضَّل النبي ﷺ الشعر بحسب ما يحمله من مضمون صالح، فقال: «**أشعر كلمة تكلَّمت بها العرب كلمة لبيد: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله**

(١) فيض القدير (٣/٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم عن ابن عباس، انظر: الجامع الصغير (٣/٢٩).

(٣) فيض القدير (٣/٢٩).



باطِلُ»[1]، قال المناوي مبيّناً سبب تفضيل كلمة لبيد على ما سواها: «وإنما كان ذلك أصدق كلمة لتطابق العقل والنقل على حقيقتها والشهادة بها، قال في الكشاف: والشعر كلام مقفى موزون يدلُّ على معنى. انتهى[2]. وقد قدم الإجماع على حل قول الشعر إذا قلَّ وخلا عن هجو وكذب وإغراق في مدح وتغزُّل فيما لا يحل»[3].

وعليه فإن قول القاضي الجرجاني: «فلو كانت الديانة عاراً على الشعر وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد عليه الأمة بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله ﷺ بكماً خرساً، وبكاء مفحمين، ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر»[4] ينبغي أن يفهم بأنه ليس دعوة إلى حرية الشاعر، وإنما أراد أن صنعة الشعر تحتاج إلى مجموعة من العوامل الفنية حتى يكون الكلام شعراً، فلا يكفي المضمون الخير دون الشكل الفني، فالشعر قسيم النثر، ولكلٍّ منهما خصائصه الأسلوبية والفنية، وهذه الخصائص قد يجيدها من كان في الجاهلية أو الإسلام على درجات متفاوتة، ولا علاقة لإجادة قواعد العمل الفني بالدين، ولكن ليس معنى هذا أن لا يلتزم الشاعر بالدين، فدعوة الجرجاني لإجادة الشكل لا تعني رفض التزام المضمون، فلا بدَّ من الاثنين معاً، وإذا عيب شعر أبي نواس فيعاب لا على أنه شعر رديء من الناحية الفنية وإنما على أنه معيب من الناحية الخلقية، والقاضي الجرجاني فقيه

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (١/٥٢٤).

(٢) الكشاف للزمخشري (٤/٢٦).

(٣) فيض القدير (١/٥٢٤).

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ص ٦٤، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ومفسر للقرآن الكريم، ولا أحسب أن مثله يبيح للشاعر أن يقول في كل اتجاه ويذهب في كل واد، والله تعالى يقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] فالكلمة الجميلة لا بدَّ أن تكون أمينة، وهل ثمة جمال بدون الأمانة إلا أن يكون جمالاً مزيفاً؟

المبحث الثاني:

موقف النبي ﷺ من البيان

امتدح النبي ﷺ بيان الرجل، وبيَّن أنه هو الجمال الحقيقي في الإنسان، لأنه يدلُّ على أصالة عقله وجودة قريحته، فقال: «**الجمال في الرجل اللسان**»(١)، قال المناوي: «أي فصاحة اللسان كما تفسره مرويات أخر، وهو معدود من جوامع الكلم، ولما أرسل المصطفى إلى الكافة أيد طبعه بالفصاحة من غير تكلُّف، لا كتكلُّف المتشدِّقين، وسجع المتملِّقين المتصنِّعين»(٢).

وأشاد النبي ﷺ بالبيان، فقال: «**إن من البيان لسحراً**»(٣)، وقد ذهبت تأويلات العلماء لهذا الحديث في طرق مختلفة، يقول المناوي ناقلاً بعضها: «أي إن منه لنوعاً يحلُّ من العقول والقلوب في التمويه محلَّ السحر، فإن الساحر بسحره يزيِّن الباطل في عين المسحور، حتى يراه حقاً، فكذا المتكلِّم بمهارته في البيان، وتفنُّنه بالبلاغة وترصيف النظم، يسلب عقل السامع ويشغله عن التفكّر فيه، والتدبّر له، حتى يخيل إليه الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا معنى قول ابن قتيبة: «إن منه ما يقرب البعيد ويبعد القريب، ويزين الباطل القبيح، ويعظِّم الصغير، فكأنه سحر، وما ضارعه

---

(١) أخرجه الحاكم عن علي بن الحسين مرسلاً، انظر: الجامع الصغير (٣/٣٥٧).
(٢) فيض القدير (٣/٣٥٧).
(٣) أخرجه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عمر، انظر: الجامع الصغير (٢/٥٢٤).

فهو مكروه، كما أن السحر محرم»[1]، وهذا قاله حين قدم وفد تميم، وفيه الزبرقان وعمرو بن الأهتم، فخطبا ببلاغة وفصاحة، ثم فخر الزبرقان، فقال: يا رسول الله! أنا سيد بني تميم، والمطاع فيهم، والمجاب لديهم، أمنعهم من الظلم، وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا يعلم ذلك. فقال عمرو: إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أذنيه. فقال الزبرقان: والله لقد علم مني أكثر مما قال، ما منعه أن يتكلَّم إلا الحسد، فقال عمرو: أنا أحسدك؟ والله إنك للئيم الخصال، حديث المال، ضيق العطن، أحمق الولد، والله يا رسول الله لقد صدقتُ فيما قلتُ أولاً، وما كذبتُ فيما قلتُ، لكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمتُ، وإذا غضبتُ قلتُ أقبح ما وجدتُ، ولقد صدقتُ في الأولى والأخرى جميعاً، فقال رسول الله ﷺ: «**إن...**» إلخ، قال الميداني: «هذا المثل في استحسان النطق وإيراد الحجة البالغة»[2]. قال التوربشتي: وحقه أن يقال: إن بعض البيان كالسحر، لكنه جعل الخبر مبتدأ مبالغة في جعل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً»[3].

وقد تكرر هذا الحديث في أكثر من سياق، وقد أكد المناوي عند رواية هذا الحديث بلفظ: «**وإن من البيان لسحراً**»[4]، على أن المقصود هو الذم، فقال: «أي منه ما يصرف قلوب السامعين إلى قبول ما يستمعون وإن كان غير حق، قيل: هذا ذم لتزيين الكلام وتعبيره بعبارة يتحيَّر فيها السامعون كما يتحيَّرون بالسحر، وكما يكتسب الإثم بالسحر يكتسب بعض البيان»[5].

ولكن هنالك من ذهب إلى أن هذا الحديث وأمثاله مدح للبيان، يقول

---

(١) تأويل مختلف الحديث، تحقيق محمد الأصفر، ص ٣٦٠، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٢) مجمع الأمثال، للميداني (٩/١).

(٣) فيض القدير (٥٢٤/٢).

(٤) من حديث أخرجه مسلم وأحمد عن عمار بن ياسر، انظر: الجامع الصغير (٤٥٧/٢).

(٥) فيض القدير (٤٥٧/٢).

البغوي: «وذهب آخرون إلى أن المراد منه مدح البيان، والحث على تحسين الكلام وتحبير الألفاظ لأن إحدى القرينتين: **«إن من الشعر حكماً»** على طريقة المدح، فكذلك القرينة الأخرى»(١).

وما ذكره البغوي هو الأقرب هنا، لأن البيان من نعم الله على الإنسان، وقد نوَّه به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن: ٤] والأصل في نعم الله أن تمدح، وإنما يذمّ في حالة استخدامه للتمويه والتضليل، فيكون مذموماً لا من حيث ذاته بل من حيث مقصده، وأما السحر فمذموم من حيث ذاته ومقصده، والتشبيه به هنا جاء لمدح البيان بمعنى أن منه ما يخلب اللبَّ ويأخذ بالقلب ليس إلا.

فضل الكلام على الصمت:

ويؤيد ما ذكرته من فضيلة البيان قول النبي ﷺ: **«ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»**(٢)، فقد قدَّم قول الخير على الصمت، قال المناوي: «وأفاد الخبر أن قول الخير خير من الصمت لتقديمه عليه، وأنه إنما أمر به عند عدم قول الخير»(٣).

والصمت هو أفضل من اللغو، وقد يكون من البلاغة، يقول ابن رشيق: «وسئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: اسم لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون شعراً... قال صاحب الكتاب: فهذا ابن المقفع جعل من السكوت بلاغة رغبة في الإيجاز»(٤).

---

(١) شرح السنة، للبغوي (١٢/٣٦٥).
(٢) من حديث أخرجه الشيخان وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أبي شريح وعن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٦/٢١٠).
(٣) فيض القدير (٦/٢١٠).
(٤) العمدة في صناعة الشعر ونقده ص ١٦٨.

والخلاصة في هذا الباب أن الحمد والذم يكون بحسب المقام، وإن كان الأصل تفضيل الكلام، يقول الجاحظ: «وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله، بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت»[1].

ذم زخرف الكلام عندما يخلو من الحقيقة:

عندما يكون البيان صناعة لفظية هدفها تضييع الحقوق وتزييف الحقائق فهو مذموم، وفي هذا الصدد يمكن أن نفهم المراد بقول النبي ﷺ: **«الحياء والعيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»**[2]، قال المناوي: «أي فصاحة اللسان، والمراد به هنا ما يكون فيه إثم من الفصاحة كهجو أو مدح بغير حق، **«شعبتان من النفاق»** بمعنى أنهما خصلتان منشؤهما النفاق، والبيان المذكور هو التعمق في النطق، والتفاصح، وإظهار التقدم فيه على الغير تيهاً وعجباً كما تقرر، قال القاضي: لما كان الإيمان باعثاً على الحياء والتحفظ في الكلام والاحتياط فيه عدَّ من الإيمان، وما يخالفهما من النفاق، وعليه فالمراد بالعي ما يكون بسبب التأمل في المقال والتحرز عن الوبال، لا لخلل في اللسان، والبيان ما يكون بسببه الاجتراء، وعدم المبالاة بالطغيان، والتحرز عن الزور والبهتان»[3].

وقد دفع الجاحظ ما يوهم التناقض بين هذا الحديث وما جاء في القرآن الكريم من مدح للبيان، فقال: «ونحن نعوذ بالله أن يكون القرآن يحثّنا على البيان، ورسول الله ﷺ يحثُّ على العي، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله ﷺ بين البذاء والبيان، وإنما وقع النهي على كل شيء جاوز

---

(١) البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون (١/٢٧١).

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي أمامة، انظر: الجامع الصغير (٣/٤٢٨).

(٣) فيض القدير (٣/٤٢٨).

المقدار، ووقع اسم العي على كلِّ شيء قصر عن المقدار، فالعي مذموم، والخطل مذموم، ودين الله بين المقصر والغالي»[1].

وكأن هذا الحديث مسوق لمن جعل البيان وسيلة لقلب الحقائق في هذه الحياة، والعجب أن نجد بعض نقادنا القدامى من يرى البلاغة في هذا، يقول أبو هلال العسكري: «وقال ابن المقفع: البلاغة كشف ما أغمض من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل، والذي قاله أمر صحيح لا يخفى موضع الصواب فيه على أحد من أهل التمييز والتحصيل، وذلك أن الأمر الظاهر الصحيح الثابت المكشوف ينادي على نفسه بالصحة، ولا يحوج إلى التكلف في صحته حتى يوجد المعنى فيه خطيباً، وإنما الشأن في تحسين ما ليس بحسن، وتصحيح ما ليس بصحيح بضرب من الاحتيال والتجيل»[2].

وهنا لا بد أن نتساءل ما هي وظيفة الأدب في الحياة؟ وهل يصحُّ أن تكون هذه هي رسالة الأدباء والبلغاء في خير أمة أخرجت للناس؟

ذم ما يقع فيه بعض المتكلمين من العيوب:

كما يذمّ البيان إذا صار زخرفاً من القول غروراً، فكذلك يذمُّ صاحبه إذا صار متشدِّقاً ثرثاراً، يقول النبي ﷺ: **«وشراركم الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»**[3]، قال المناوي: «أي الذين يكثرون الكلام تكلُّفاً وتشدُّقاً، والثرثرة كثرة الكلام وترديده، **«المتفيهقون»** أي الذين يتوسّعون في الكلام ويفتحون به أفواههم ويتفحصون به، **«المتشدقون»** الذين يتكلّمون بأشداقهم، ويتمقعرون في مخاطباتهم»[4].

---

(١) البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون (٢٠٢/١)، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م.

(٢) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: د. مفيد قميحة، ص ٦٤.

(٣) من حديث أخرجه البيهقي عن ابن عباس، انظر: الجامع الصغير (٤٦٥/٣).

(٤) فيض القدير (٤٦٥/٣).

وفي هذا السياق ورد أيضاً قول النبي ﷺ: **«هلك المتنطِّعون»**[(١)]، قال المناوي: «أي المتعمقون المتقعرون في الكلام، الذين يرومون بجودة سبكه سبي قلوب الناس، يقال: تنطع الرجل في علمه إذا تنطس فيه، قال أوس:

وحشو جفير من فروع غرائب ... تنطع فيها صانع وتأملا

ذكره الزمخشري، قال: «وأراد النهي عن التماري والتلاحي في القراءات المختلفة، وأن مرجعها إلى وجه واحد من الحسن والصواب»[(٢)]. انتهى، وقال المناوي: «فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلُّف الفصاحة واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم». انتهى[(٣)].

ومن أسوأ صور التشدق أن يبرز اللسان خارج الشفتين عند من يتفاصحون وكأنهم يريدون أن يأكلوا الدنيا ببلاغتهم، يقول النبي ﷺ مشبهاً حال هؤلاء بالبقر التي تتناول طعامها: **«إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلَّل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها»**[(٤)]، قال المناوي: **««الباقرة»**: جماعة البقر، أي الذي يتشدَّق بلسانه كما تتشدق البقرة، ووجه الشبه إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلم، كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل، وخصَّ البقرة من بين البهائم لأن سائرها تأخذ النباتات بأسنانها، والبقرة لا تحتش إلا بلسانها، ذكره جمع أخذاً من قول التوربشتي: ضرب للمعنى مثلاً يشاهده الراؤون من حال البقرة، ليكون أثبت في الضمائر، وذلك أن كل دابة تأخذ النبات بأسنانها، والبقرة بلسانها، يضرب بها المثل لأنهم كانوا في مغزاهم كالبقرة التي لا تستطيع أن تميِّز في رعيها بين الرطب والشوك،

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود عن ابن مسعود، انظر: الجامع الصغير (٦/٣٥٥).
(٢) انظر: الفائق في غريب الحديث، مادة «نطع».
(٣) فيض القدير (٦/٣٥٥).
(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عمرو، انظر: الجامع الصغير (٢/٢٨٣).

والحلو والمر، بل تلفُّ الكل بلسانها لفاً، فكذا هؤلاء لا يميِّزون في مأكلهم بين الحلال والحرام، ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المَائدة: ٤٢]. وقال القاضي: شبه إدارة لسانه حول الأسنان والفم حال التكلم تفاصحاً... قال في الأذكار: فيكره التقعير في الكلام بالتشدق وتكلّف السجع والفصاحة، والتصنّع بالمقامات التي يعتادها المتفاصحون وزخارف القول، فكله من التكلّف المذموم، وكذا تحرِّي دقائق الإعراب ووحشي اللغة حال مخاطبة العوام»[1].

فالبيان وفق ما توحيه الأحاديث النبوية ليس صناعة لفظية، ولا أصواتاً عالية، ولا صياحاً وتشادقاً، ولا زخرفاً وتمويهاً وتكسباً، وإنما هو رسالة في الحياة قوامها التعبير عما يريده الإنسان بأسلوب يجلب له المودة والاحترام، وموقف النبي ﷺ من النثر قريب من موقفه من الشعر، فهو موقف أخلاقي قبل كل شيء.

المبحث الثالث:

خصائص البيان النبوي

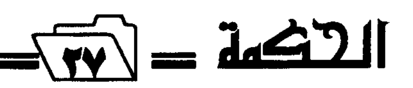
ونناقش فيه ثمانية أمور تتعلق بالبيان النبوي:

الأمر الأول: انفراد النبي ﷺ بجوامع الكلم:

جوامع الكلم عند المناوي تشمل القرآن والحديث معاً، وإن كانت بلاغة القرآن أعلى فهي في مرتبة الإعجاز، والحديث ليس كذلك، ولكن كلاهما جامعان لأكثر المعاني بأقل الألفاظ بالنسبة لغيرهما، فقد ذكر عند قول النبي ﷺ: «**بعثت بجوامع الكلم**»[2] ما يلي: «أي القرآن، وسمي به

(١) فيض القدير (٢/٢٨٣).

(٢) من حديث أخرجه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٣/٢٠٣).



لإيجازه، واحتواء لفظه اليسير على المعنى الغزير، واشتماله على ما في الكتب السماوية، وجمعه لما فيها من العلوم السنية:

وعلى تفنن واصفيه بحسنِهِ   يفنى الزمانُ وفيه ما لم يوصفِ»[1]

وعند قول النبي ﷺ: **«أعطيت جوامع الكلم، واختُصر الكلام لي اختصاراً»**[2]، يفسر قوله: **«أعطيت جوامع الكلم»** على أن المراد به البيان النبوي فيقول: «أي ملكة أقتدر بها على إيجاز اللفظ مع سعة المعنى بنظم لطيف لا تعقيد فيه يعثر الفكر في طلبه، ولا التواء يحار الذهن في فهمه، فما من لفظة يسبق فهمها إلى الذهن إلا ومعناها أسبق إليه... حتى صار ما أتكلم به كثير المعاني قليل الألفاظ، وقوله: **«اختصاراً»**: مصدر مؤكد لما قبله، فهو الجامع لما تفرق قبله في الرسل من الكمال، المخصوص بما لم يعطه أحد منهم من المزايا والإفضال، فمما اختصَّ به عليهم: الفصاحة والبلاغة»[3].

وعند قول النبي ﷺ: **«أعطيت فواتح الكلام، وجوامعه، وخواتمه»**[4]، يذكر المناوي بأن كلام النبي ﷺ جامع للمعاني اقتداء بالقرآن الذي كان خلقه، يقول: «أي البلاغة والفصاحة والتوصل إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبارات التي أغلقت على غيره، وفي رواية: مفاتح الكلم، قال الكرماني: أي لفظ قليل يفيد معنى كثيراً، وهذا معنى البلاغة... **«وجوامعه»** التي جمعها الله فيه، فكان كلامه جامعاً كالقرآن في كونه جامعاً فإنه خُلقه، **«وخواتمه»** أي خواتم الكلام، يعني حسن الوقف ورعاية

(١) فيض القدير (٣/٢٠٥).
(٢) أخرجه أبو يعلى والبيهقي عن عمر، والدارقطني عن ابن عباس، انظر: الجامع الصغير (١/٥٦٣).
(٣) فيض القدير (١/٥٦٣).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني عن أبي موسى، انظر: الجامع الصغير (١/٥٦٥).

الفواصل، فكان يبدأ كلامه بأعذب لفظ وأجزله وأفصحه وأوضحه، ويختمه بما يشوق السامع إلى الإقبال على الاستماع مثله والحرص عليه»[1].

الأمر الثاني: وحدة النظم في الحديث النبوي:

أسلوب الحديث النبوي يختلف عن غيره من أساليب البلغاء والفصحاء، ومن أهم ما يميِّزه أنه لحمة واحدة، ونسيج واحد، لا خلل فيه ولا ثغرات، وأن نظمه كالعقد المنضود، من ذلك قول النبي ﷺ: **«اللهمَّ إني أسلمتُ نفسي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، وخليتُ وجهي إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنتُ برسولك الذي أرسلتَ، وبكتابكَ الذي أنزلتَ»**[2]، وقد أشار المناوي إلى ما في نظم هذا الحديث من الترابط والوحدة والجمال، فقال ناقلاً عن الطيبي: «في هذا النظم عجائب وغرائب، لا يعرفها إلا الثقات من أهل البيان، فقوله: **«أسلمتُ نفسي»** إشارة إلى أن جوارحه منقادة لله في أوامره ونواهيه، وقوله: **«وجهتُ وجهي»** إشارة إلى أن ذاته وحقيقته مخلصة له بريئة من النفاق، وقوله: **«فوضت»** إشارة إلى أن أموره الخارجة والداخلة مفوضة إليه لا مدبر لها غيره، وقوله: **«ألجأت»** بعد **«فوضت»** إشارة إلى أنه بعد تفويض أموره التي هو مفتقر إليها وبها معاشه، وعليها مدار أمره يلجأ إليه مما يضرُّه من الأسباب الداخلة والخارجة، ثم قوله: **«رغبة ورهبة»** منصوبات على المفعول له على طريق اللف والنشر، أي فوضتُ أموري إليك رغبةً، وألجأت ظهري من المكاره والشدائد إليك رهبة منك، لأنه **«لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»** وملجأ مهموز، ومنجا مقصور، همز للازدواج، وقوله: **«آمنتُ بكتابك»** تخصيص بعد تعميم في قوله: **«أسلمت»** إلخ **«ورسولك الذي أرسلت»** تخصيص من التخصيص، فعلى

(١) فيض القدير (١/٥٦٥).

(٢) من حديث أخرجه الحاكم عن علي، انظر: الجامع الصغير (٢/١٢١).

هذا قوله: **«رغبة ورهبة إليك»** من باب قوله[1]:

متـــقـــلِّـــداً ســـيـــفـــاً ورمـــحـــاً[2]

ونذكر أيضاً في هذا السياق قول النبي ﷺ يبيِّن فضل الأذان والصف الأول: **«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»**[3]، وفي الحديث تهييج للناس وحثٌّ لهم على المبادرة إلى الأذان والصلاة، وتصوير لحالة اختلافهم فيما بينهم على من يكون صاحب الحظ الأوفر في ذلك، وقد قال المناوي عقب الحديث: «**«لو يعلم الناس»** أي علموا، فوضع المضارع موضع الماضي ليفيد استمرار العلم»[4]، ويضيف مبيِّناً ما في هذا الحديث الموجز من وحدة النظم: «قال الطيبي: وعبر بـ **«ثم»** المؤذنة بتراخي رتبة الاستباق عن العلم، وقدم ذكر التأذين دلالة على تهييء المقدمة الموصلة إلى المقصود الذي هو المسؤول بين يدي ربِّ العزة فيكون من المقربين، وأطلق مفعول **«يعلم»** يعني «ما»، ولم يبيِّن أن الفضيلة ما هي ليفيد ضرباً من المبالغة، فإنه مما لا يدخل تحت الحصر والوصف، وكذا تصوير حالة الاستباق بالاستهام فيه من المبالغة حدها، فإنه لا يقع إلا في أمر يتنافس فيه المتنافسون، ويرغب فيه الراغبون، سيما إخراجه مخرج الاستثناء والحصر، وليت شعري بماذا يتشبث ويتمسَّك من طرق سمعه هذا البيان ثم يتقاعد عن الجماعة خصوصاً: الصف الأول»[5].

---

(١) عجز بيت لعبدالله بن الزبعري، وصدره: (يا ليت بعلك قد غدا) وهو في الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (١/١٩٦، ٢١٨، ٤٠٣)، دار المعارف، بيروت، والكشاف للزمخشري (٤/١٦٠).

(٢) فيض القدير (٢/١٢٢).

(٣) من حديث أخرجه الشيخان وأحمد والنسائي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير(٥/٣٣٦).

(٤) فيض القدير (٥/٣٣٦).

(٥) فيض القدير (٥/٣٣٧).

أهمية الجمع بين ما يوهم التعارض في الحديث النبوي:

من مزايا البيان النبوي التي يتميَّز بها عن الشعر وغيره أن بعضه يصدِّق بعضاً، وأنه بناء واحد ووحدة متكاملة، وعند التعامل مع البيان النبوي ينبغي أن ندرك أنه لا تناقض فيه أبداً، وإنما هي أحاديث نقلها الرواة، وقد قيلت بأزمان مختلفة، وظروف متباينة، فإذا وجد القارىء شيئاً مما يوهم التعارض ينبغي دفعه بحسن الفهم والتأويل، لا بإنكار السنة والهزء برواتها وعلمائها كما يفعل بعض من ليس لهم حظٌّ في العلم، أو ممن تطفل على علوم العربية والدين من غير أهل الاختصاص، فمن ذلك قول النبي ﷺ في صفة حوضه: «**إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء**»[1]، قال المناوي: «قال القرطبي أخذاً من كلام حجة الإسلام: ظن بعضهم أن التحديد في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف وليس كذلك، وإنما تحدَّث المصطفى ﷺ بحديث الحوض مرات، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطباً لكلِّ قوم بما يعرفونه من مسافات مواضعها، فقال لأهل الشام: «**ما بين أذرح وجرباء**»، ولأهل اليمن: «**من عدن إلى عمان**»، وهكذا، وتارة يقدر بالزمان، فيقول: «**مسيرة شهر**»، والمعنى المراد أنه حوض كبير متَّسع الأرجاء والزوايا، فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات، وليس الحوض على وجه هذه الأرض، بل وجوده في الأرض المبدَّلة على مسافة هذه الأقطار، وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم، ولم يُظلم على ظهرها أحد»[2].

ومن ذلك أيضاً: قول النبي ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات... وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»[3]، قال المناوي: «**«السبع»**: أي الكبائر

---

(١) من حديث أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن ثوبان، انظر: الجامع الصغير (٢/٤٤٢).

(٢) فيض القدير (٢/٤٤٨).

(٣) من حديث أخرجه الطبراني عن خزيمة بن ثابت، انظر: الجامع الصغير (١/١٤١).

السبع، ولا ينافيه عدّها في أحاديث أخرى أكثر، لأنه أخبر في كل مجلس بما أوحي إليه، أو ألهم أو سنح له باعتبار أحوال السائل، أو تفاوت الأوقات، أو لزيادة فحشها وفظاعة قبحها، أو لأن مفهوم العدد غير حجة، أو لغير ذلك»[1].

ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ يحدد الكبائر: «**الكبائر: الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله**»[2]، قال المناوي: «قال القاضي: ليس لقائل أن يقول: كيف عدَّ الكبائر هنا ثلاثاً أو أربعاً وفي حديث آخر سبعاً؟ لأنه لم يتعرض للحصر في شيء من ذلك، ولم يعرب به كلامه، أما في هذا الحديث فظاهر، وأما في رواية السبع فلأن الحكم مطلق، والمطلق لا يفيد الحصر، فإن قلت: بل الحكم فيه كلي، إذ اللام في الكبائر للاستغراق. قلت: لو كانت للاستغراق لا الجنس كان المعنى كل واحدة من هذه الخصال، وهو فاسد، أما في رواية: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» فإنه لا يستدعي عدم اجتناب غيرها، ولا أن غيرها غير موبق لا بلفظه ولا بمعناه»[3].

ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة أعطى الله تعالى كل رجل من هذه الأمة رجلاً من الكفار، فيقال له: هذا فداؤك من النار**»[4]، قال المناوي: «قال القرطبي: وظاهر هذه الأحاديث الإطلاق، وليست كذلك، وإنما هي في أناس مذنبين يتفضل الله عليهم بمغفرته، فأعطى كل واحد منهم فكاكاً من النار، كما يدلُّ له خبر مسلم: «**يجيء يوم**

(١) فيض القدير (١٥٣/١).
(٢) أخرجه البزار عن ابن عباس، قال الزين العراقي: إسناده حسن، انظر: الجامع الصغير (٦١/٥).
(٣) فيض القدير (٦١/٥).
(٤) أخرجه مسلم عن أبي موسى، انظر: الجامع الصغير (٤٢٨/١).

القيامة أناس من المؤمنين بذنوب أمثال الجبال، يغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى»»[1].

ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ: «**احذروا الدنيا فإنها خضرة حلوة**»[2] قال المناوي: «أي حلوة المذاق، صعبة الفراق، قال في المطامح: فيه استعارة مجازية، ومعجزة نبوية، فخضرتها عبارة عن زهرتها وحسنها، وحلاوتها كناية عن كونها محببة للنفوس، مزينة للناظرين، وهو إخبار عن غيب واقع، فإن قلت: إخباره عنها بخضرتها وحلاوتها يناقضه إخباره في عدة أخبار بقذارتها... قلت: لا منافاة، فإنها جيفة قذرة في مرأى البصائر، وحلوة خضرة في مرأى الأبصار، فذكر ثم أنها جيفة قذرة للتنفير، وهنا كونها حلوة خضرة للتحذير، فكأنه قال: لا تغرَّنَّكم بحلاوتها وخضرتها، فإن حلاوتها في الحقيقة مرارة، وحضرتها يبس، فلِلَّه درّ كلام المصطفى ﷺ ما أبدعه!»[3].

من هذه النماذج نجد أن العلماء بذلوا جهداً في الجمع بين الأحاديث التي توهم التعارض، والدائرة الأوسع لهذا الجمع أن الأحاديث كانت وفق مقتضيات أحوال السائلين، وليست على الإطلاق، ومعلوم أن قاعدة البلاغة هي مراعاة مقتضى الحال، فهذه الأحاديث دليل على بلاغته عليه السلام، وإنما اللوم على من أنكر مثل هذا لجهله بلسان العرب ومقتضيات الخطاب.

الأمر الثالث: الحقيقة هي الأصل في البيان النبوي والحمل عليها أولى:

الأصل في الأخبار النبوية هو الحقيقة، فقول النبي ﷺ: «**أُحد جبل يحبُّنا ونحبُّه**»[4] هو حقيقة كما رجح العلامة المناوي حيث قال: «أي نأنس

---

(١) فيض القدير (٤٢٨/١).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد عن مصعب بن سعد مرسلاً، انظر: الجامع الصغير (١٨٨/١).

(٣) فيض القدير (١٨٨/١).

(٤) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد، والترمذي عن أنس، وغيرهم، انظر: الجامع الصغير (١٨٤/١).





به، وترتاح نفوسنا لرؤيته، وهو سدٌّ بيننا وبين ما يؤذينا، فمحبة الحي للجماد: إعجابه به، وسكون النفس إليه، والارتياح لرؤيته، ومحبة الجماد ـ وهو الجبل هنا ـ للحي مجاز عن كونه نافعاً ساداً بينه وبين ما يؤذيه، أو المراد أهله الذين هم أهل المدينة على حد: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يُوسُف: ٨٢]، والأصوب أن المراد الحقيقة، ولا تنكر محبة الجماد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما حنَّ إليه الجذع، وسبَّح الحصى في يده، وسلَّم الحجر والشجر عليه، وكلَّمه الذراع، وأمنت حوائط البيت على دعائه، فهو إشارة إلى حبِّ الله إياه ﷺ، حتى أسكن حبه في الجماد، وغرس محبَّته في الحجر، مع فضل يبسه، وفظاظته، وكمال صلابته»[1].

وقد ذهب ابن الأثير في مثل هذا إلى أنه من باب المجاز، فقال: «فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع، إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد»[2]، والأولى ما ذكره المناوي لأنه اعتمد على أدلة من المرويات تثبت ذلك، والله ﷻ على كلِّ شيء قدير.

الأمر الرابع: بعض الكلام النبوي يراد به التمثيل وليس على ظاهره:

إذا كانت الحقيقة هي الأصل في الكلام عامة والبيان النبوي بشكل خاص، فلا يمتنع أن تكون بعض الأخبار ليست على ظاهرها، أو أريد بها التمثيل، وذلك إذا وجد من القرائن ما يؤيد ذلك. فقول النبي ﷺ في نعيم المؤمن: **«وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء»**[3] إنما أريد به التقريب للسامعين بذكر أسماء البلدان التي يعرفونها، قال المناوي: «**«الجابية»**: قرية بالشام، و**«صنعاء»** قصبة اليمن، كثيرة الشجر

---

(١) فيض القدير (١/١٨٤).
(٢) المثل السائر (٢/٦٦).
(٣) من حديث أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان عن أبي سعيد، انظر: الجامع الصغير (١/٢٣٢).

والماء تشبه دمشق... قال القاضي: أراد أن بعد ما بين طرفيها كما بين الموضعين، وهذا للمبالغة في السعة، وقد شنع حجة الإسلام على من زعم أن المراد الحقيقة، وقال: لا تظن أن المراد به تقدير بالمساحة لأطراف الأجسام، فإن ذلك جهل بطريق ضرب الأمثال»(١).

الأمر الخامس: البلاغة النبوية ذروة البلاغة الإنسانية:

تميَّز النبي ﷺ على سائر الأنبياء بأنه أوتي جوامع الكلم، فهو أبلغهم كلماً، وهم أبلغ العرب أيضاً، ومن ثَمَّ فهو سيد البلغاء، وإمام الفصحاء من بني البشر، فحق له أن يفتخر قائلاً: **«أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر»**(٢)، قال المناوي عقب هذا الحديث: «قال الزمخشري: «هذا اللسان العربي، كأن الله عزَّت قدرته مخضه وألقى زبدته على لسان النبي ﷺ، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل، وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل»»(٣).

وقد صقل الله تعالى لسان نبيِّه بالقرآن الكريم، فنزهه عن اللحن في القول، يقول النبي ﷺ: **«إن الله لم يجعلني لحاناً اختار لي خير الكلام كتابَه القرآن»**(٤)، قال المناوي: «ومن كتابه القرآن كيف يلحن؟ لا تنقضي آياته، ولا تتناهى على مرِّ الزمان معجزاته، قد أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء، ورفعوا رؤوسهم من بدائعه وصنائعه تعجُّباً، فمن القرآن خُلقه ولسانه كيف يلحن»(٥).

(١) فيض القدير (١/٢٣٣).
(٢) أخرجه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلاً، انظر: الجامع الصغير (٣/٤٤).
(٣) فيض القدير (٣/٤٤). وانظر: الفائق في غريب الحديث (١/١١).
(٤) أخرجه الشيرازي في الألقاب والديلمي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٢/٢٥٥).
(٥) فيض القدير (٢/٢٥٥).





ولأن النبي أفصح العرب، فقد تفوّق بفصاحته على أشعر شعرائهم امرىء القيس، وذلك بقوله ﷺ: **«الإيمان قيد الفتك»**[1]، قال المناوي: «قال الزمخشري: «الفرق بين الفتك والغيلة أن الفتك أن تهتبل غرته فتهلكه جهاراً، والغيلة أن تكتمن له في محل فتقتله خفية» انتهى. وظاهر أن المراد في الحديث هما معاً، قال العسكري: الناس يستحسنون لامرىء القيس: «قيد الأوابد» في وصف فرسه، يريد أن الأوابد من الوحش إذا رأته أيست أن تنجو منه، فتكون الفرس كالقيد لها، ويزعمون أنه اخترعه وابتدعه، وقد اتفق في هذا الحديث ما هو أحسن منه من غير تعمل»[2].

ومن عجيب كلامه ﷺ: **«استكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً ما دام منتعلاً»**[3]، قال المناوي: «**«لا يزال راكباً ما دام منتعلاً»** لفظ رواية مسلم: **«ما انتعل»**: أي هو شبيه بالراكب مدة دوامه لابساً للنعل في خفة المشقة وقلة النصب، وسلامة رجله من نحو أذى أو شوك، وخصَّ الرجل لأن السفر غالباً إنما يكون للرجال، فإن سافرت أنثى أو خنثى فهي كالرجال، قال القرطبي: **هذا كلام بليغ ولفظ فصيح لا ينسج على منواله، ولا يؤتى بمثاله**، وهو إرشاد إلى المصلحة وتنبيه على ما يخفِّف المشقة، فإن الحافي المديم للحفا يلقى من الألم والمشقة بالعثار وغيره ما يقطعه عن المشي، ويمنعه من الوصول لمقصده، والمنتعل يمكنه إدامة المشي فيصل لمقصوده كالراكب، ولذلك شبَّه به»[4].

ومما ابتدعه من روائع الكلم قوله ﷺ: **«الآن حمي الوطيس»**[5]، قال

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ وأبو داود والحاكم عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (١٨٦/٣).

(٢) فيض القدير (١٨٦/٣). وانظر: الفائق في غريب الحديث، مادة «فتك».

(٣) أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وغيره عن جابر، انظر: الجامع الصغير (٤٩٩/١).

(٤) فيض القدير (٤٩٩/١).

(٥) أخرجه مسلم وأحمد عن العباس، انظر: الجامع الصغير (١٦٦/٣).

المناوي: «بفتح فكسر: التنور أو شبهه، أو الضراب في الحرب، أو حجارة مدورة إذا حميت لم يقدر أحد أن يطأها، عبَّر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق من قبيل الاستعارة لشدة المعركة والتحامها، وقرنها بالحمو ترشيحاً للمجاز. . . وهذا لفظ بديع لم يسمع بمثله»[1].

الأمر السادس: الحديث النبوي حجة في النحو والبلاغة:

يرى النحاة أن أفعل التفضيل «يصاغ من الأفعال التي يجوز التعجب منها للدلالة على التفضيل وصف على وزن أفعل، فتقول زيد أفضل من عمرو وأكرم من خالد، كما تقول ما أفضل زيداً، وما أكرم خالداً، وما امتنع منه بناء فعل التعجب منه، امتنع بناء أفعل التفضيل منه»[2] فلا يصاغ مثلاً من فعل يأتي الوصف منه على أفعل مثل: (حمر، عور)، وعليه فما قاله العرب نحو: (أسود من حلك الغراب، وأبيض من اللبن) هو شاذ، ويتوصل للتعجب من الأفعال التي لم تستوفِ الشروط بـ (أشد) ونحوها كما في التعجب[3].

ولكن جاء في كلام النبي ﷺ خلاف قاعدتهم تلك، وذلك في قوله يصف حوضه: «**وماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك**»[4]، قال المناوي: «**«وماؤه أبيض»** اسم تفضيل من الألوان، وكفاك به شاهداً لجواز بنائه لفعل التعجب منها بدون أشد وأبلغ وإن منعه النحاة، فيقال: ما أبلغ زيد، وهو **«أبيض من اللبن»** فهو لغة قليلة، ولا يلزم من قلَّتها عدم فصاحتها، لصدورها عن صدر الفصحاء، وفي رواية لمسلم: **«وماؤه أبيض**

---

(١) فيض القدير (٣/١٦٦).

(٢) شرح ابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (٢/١٧٤)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) انظر: شرح ابن عقيل (٢/١٧٥).

(٤) من حديث أخرجه الشيخان عن ابن عمرو، انظر: الجامع الصغير (٣/٣٩٩).



من الورق». **«وريحه أطيب من»** ريح **«المسك»** خصَّه لأنه أطيب الطيب، ذكره القاضي، وتلاه القرطبي، جاء أبيض هنا على الأصل المرفوض والمستعمل الفصيح كما في الرواية الأخرى: **«أشد بياضاً من الثلج»** فلا معنى لقول من قال من النحاة: لا يجوز التلفظ بهذه الأصول المرفوضة مع صحة هذه الروايات وشهرة تلك الكلمات»[1].

واللغة إنما هي سماع، ولا ينبغي تقرير القاعدة بعكس ما ينطق أصحابها، فكيف لو كان المتكلِّم النبي الكريم وهو ﷺ مصدر البلاغة والفصاحة كلها.

الأمر السابع: مراعاة مقتضى الحال في البيان النبوي:

من مزايا البيان النبوي مراعاة أحوال المخاطبين، وهذا ما تقتضيه وظيفة النبوة من تعليم الناس والرفق بهم، يقول النبي ﷺ: **«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلِّمكم»**[2]، قال المناوي يبيِّن ما في هذا الحديث من المعنى والجمال: «في الشفقة والحنو لا في الرتبة والعلو، فكما يعلِّم الأب ولده الأدب فأنا أعلِّمكم، ما لكم وما عليكم، وأبو الإفادة أقوى من أبي الولادة، وهو الذي أنقذنا الله به من ظلمة الجهل إلى نور الإيمان، وقدم هذا أمام المقصود إعلاماً بأنه يجب عليه تعليمهم أمر دينهم، كما يلزم الوالد، وإيناساً للمخاطبين كي ما يحتشموا عن السؤال عما يعرض لهم مما يستحى منه، وبسطاً للعذر من التصريح»[3].

وقد راعى النبي ﷺ اختلاف اللغات واللهجات في تعليمه لهم، فقول

---

(١) فيض القدير (٣/٣٩٩).

(٢) من حديث أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن ماجه عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٢/٥٧٠).

(٣) فيض القدير (٢/٥٧١، ٥٧٢).

النبي ﷺ: **«إذا دعي أحدكم إلى وليمة عرس فليُجب»**[1] فيه إضافة وليمة إلى عرس مراعاة لبعض من يفعل ذلك من العرب، وإن كان الأصل في الوليمة أنها لعرس، قال المناوي: «فإن قيل: الوليمة حيث أطلقت اختصَّت بوليمة العرس، فإن أريد غيرها قيِّدت، فما فائدة تقييدها بكونها للعرس؟ قلنا: هذا هو الأشهر لغة، لكن منهم من جعلها شاملة للكل، فلم يكتفِ في الحديث بإطلاقها دفعاً لتوهم إرادته، وأطلقت في خبر آخر جرياً على الأكثر الأشهر»[2].

وجاء في قول النبي ﷺ: **«لتركبنَّ سننَ من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع»**[3] في رواياته تفسيرات شتى بشأن المقصود بقوله: **«من قبلكم»** وذلك بسبب اختلاف الأحوال والقرائن التي قيل فيها الحديث، قال المناوي: «ليس الحديث إخباراً عن جميع الأمة لما تواتر أنها لا تجتمع على ضلالة، ثم إنه فسر هنا باليهود والنصارى، وفي خبر البخاري بفارس والروم، ولا تعارض لاختلاف الجواب بحسب اختلاف المقام، فحيث قيل فارس والروم كان ثم قرينة تتعلَّق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية، وحيث قيل اليهود والنصارى كان هنالك قرينة تتعلَّق بأمر الديانات أصولها وفروعها»[4].

ويدخل في هذا الموضوع أيضاً قول النبي ﷺ في أحوال القيامة: **«إن الله تعالى يخفِّف على من يشاء من عباده طول يوم القيامة كوقت صلاة مكتوبة»**[5]، فقد اختار التشبيه بوقت الصلاة المكتوبة مراعاة لحال المتقين من أصحابه، قال المناوي: «أي مقدار صلاة الصبح كما في خبر آخر، وهذا تمثيل لمزيد السرعة، والمراد لمحة لا تكاد تدرك، وخصَّ المثل بقدر

---

(١) أخرجه مسلم وابن ماجه عن ابن عمر، انظر: الجامع الصغير (١/٣٤٥).
(٢) فيض القدير (١/٣٤٥).
(٣) من حديث أخرجه الحاكم عن ابن عباس، انظر: الجامع الصغير (٥/٢٦١).
(٤) فيض القدير (٥/٢٦١، ٢٦٢).
(٥) أخرجه البيهقي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٢/٢٩٩).

وقت الصلاة لأن عادة البليغ الضارب للمثل أن ينظر إلى ما يستدعيه حال الممثل ويستجرّه إليه، وصفة حال السعداء في غالب الأحيان التلبس بأفضل العبادات بعد الإيمان»[١].

الأمر الثامن: إرشادات نبوية في بلاغة الكلام وآدابه:

لم يكن النبي ﷺ بليغاً وحسب، بل كان يرشد أتباعه إلى بعض قواعد البلاغة وآداب الكلام، فقد كره استعمال بعض الأساليب، يقول النبي ﷺ: **«قد كنتُ أكره لكم أن تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»**[٢]، وفي استخدام أداة العطف ثم دون الواو هنا فائدة، يقول المناوي: «قال الخطابي: أرشدهم إلى رعاية الأدب في التقديم، واختار لهم من بين طرق التقديم «ثم» المفيدة للترتيب والمهلة والفاصلة الزمنية، ليفيد أن مشيئة غير الله مؤخرة بمراتب وأزمنة. قال ابن القيم: وفي معناه الشرك المنهي عنه كقول من لا يتوقّى الشرك: أنا بالله وبك، في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، متكلي على الله وعليك، ووالله وحياتك، ونحوه من الألفاظ الشنيعة»[٣].

وكان ﷺ يعيد لهم كلامه ليحفظوا عنه، يقول أنس: (كان إذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه)[٤]، قال المناوي: «أي لتحفظ وتنقل عنه، وذلك إما لأن من الحاضرين من يقصر فهمه عن وعيه فيكرره ليفهم ويرسخ في الذهن، وإما أن يكون المقول فيه بعض إشكال فيتظاهر بالبيان دفع الشبه، وفي المستدرك: «حتى تعقل عنه» بدل «حتى تفهم»، وهذا من

---

(١) فيض القدير (٢/٢٩٩).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي، والنسائي والضياء عن حذيفة، انظر: الجامع الصغير (٤/٥٠٩).

(٣) فيض القدير (٤/٥٠٩).

(٤) أخرجه البخاري وأحمد والترمذي عن أنس، انظر: الجامع الصغير (٥/١١٣).

شفقته وحسن تعليمه، وشدة النصح في تبليغه، قال ابن التين: وفيه أن الثلاث غاية ما يقع به الإقرار والبيان»[1].

وكان يحذرهم من التحريف في النقل، يقول النبي ﷺ: **«نضَّر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه»**[2]، قال المناوي: «قال الخطابي: فيه دلالة على كراهة اختصار الحديث لمن ليس بمتناهٍ في الفقه، لأن فعله يقطع طريق الاستنباط على من بعده ممن هو أفقه منه»[3].

وكان يقرب لهم الكلام ليفهموه كما في قول النبي ﷺ: **«جعل الله الرحمة مائة جزء»**[4]، قال المناوي: «قال الكرماني: الرحمة هنا عبارة عن القدرة المتعلقة بإيصال الخير، والقدرة في نفسها غير متناهية، والتعلّق غير متناهٍ، ولكن حصره في مائة على التمثيل تسهيلاً للفهم، وتقليلاً لما عند الخلق، وتكثيراً لما عند الله»[5].

وكان يأمرهم بالصدق والصراحة والتجرد في الكلام، ويحذرهم من المداهنة والمجاملة في الألفاظ مع المنافقين، يقول النبي ﷺ: **«إذا قال الرجل للمنافق: يا سيدي فقد أغضب ربه»**[6]، قال المناوي: «أي فعل ما يستحق العقاب من مالك أمره المنعم بالإيجاد والتربية، لأنه إن كان سيِّده وهو منافق فحاله دون حاله، وقد كان المصطفى ﷺ يكره استعمال اللفظ الشريف المصون في حق من ليس كذلك، واستعمال اللفظ المهين المكروه فيمن ليس من أهله، وهذا من ذلك القبيل»[7].

---

(١) فيض القدير (١١٣/٥).
(٢) أخرجه الترمذي والضياء عن زيد بن ثابت، انظر: الجامع الصغير (٢٨٤/٦).
(٣) فيض القدير (٢٨٤/٦).
(٤) من حديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٣٤٧/٣).
(٥) فيض القدير (٣٤٧/٣).
(٦) أخرجه الحاكم والبيهقي عن بريدة، انظر: الجامع الصغير (٤١١/١).
(٧) فيض القدير (٤١١/١).

وهذه الإرشادات النبوية قلَّما يتنبه لها البلغاء، فجلّ حرصهم أن يقولوا الكلام البليغ، لا على أن يربوا في الناس ملكات التذوق ويرشدوهم إلى آداب القول والخطاب.

المبحث الرابع:
البلاغة القرآنية والإعجاز

عني المناوي خلال شرحه بذكر جوانب تتعلق بهذا الموضوع، فأفردت لها هذا المبحث، فقد كان للقرآن أثره على النبي ﷺ، فهو خُلقه، ومنهجه ودستوره في الحياة، ومنه يستمدّ الأوامر الإلهية، ومن بحر بلاغته يقتبس في خطبه وحديثه وإرشاداته.

وعرَّف المناوي القرآن بأنه: «أي اللفظ المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بأقصر سورة منه»[1]، وقد كان النبي ﷺ يعرف عظمة هذه المعجزة التي آتاه الله إياها، فيقول: **«ما من الأنبياء من نبيّ إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»**[2]، قال المناوي: **«وحياً»**: قرآناً **«أوحاه الله لي»** مستمراً على مرِّ الدهور، ينتفع به حالاً ومآلاً، وغيره من الكتب ليست معجزته من جهة النظم والبلاغة فانقضت بانقضاء أوقاتها، فحصره المعجزة في القرآن ليس لنفيها عن غيره، بل لتميّزه عنها بما ذكر، وبكونه المعجزة الكبرى الباقية المستمرة المحفوظة عن التغيير والتبديل، التي تقهر المعاند وتفحمه، فكأن المعجزات كلها محصورة فيه»[3].

وسنناقش في هذا المبحث خمسة أمور تتصل بالبلاغة القرآنية والإعجاز.

---

(١) فيض القدير (١/٤٨٥).
(٢) أخرجه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير (٥/٤٦٦).
(٣) فيض القدير (٥/٤٦٦).



١ ـ سورة الفاتحة موجز للقرآن الكريم:

من مزايا القرآن الكريم افتتاحه بسورة الفاتحة، فهذا من براعة الاستهلال، وقد كانت هذه السورة بمثابة مقدمة للقرآن الكريم توجز موضوعاته ومقاصده، يقول النبي ﷺ: **«أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»**[(١)]، قال المناوي مبيِّناً مزايا هذه السورة: «**«أم القرآن»** الفاتحة، سمِّيت به لأنها مفتتح القراءة، قال الخليل: كل شيء ضمَّ إليه ما يليه سمِّي أماً، وهي مشتملة على كليات معاني القرآن: المبدأ وهو الثناء على الله، والمعاش وهو العبادة، والمعاد وهو الجزاء، وقال القاضي: لأنها بينة في نفسها مبينة لما عداها من المتشابهات، فهي كالأصل له»[(٢)].

ولما احتوته سورة الفاتحة من الخصائص والمزايا فقد كانت أفضل سورة في القرآن الكريم، يقول النبي ﷺ: **«ألا أخبرك بأخير سورة في القرآن؟ الحمد لله رب العالمين»**[(٣)]. قال المناوي: «قال التوربشتي: وقد جاء في البخاري: أنها لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، قال ابن التين: معناه أن ثوابها أعظم من غيره، وقال القرطبي: اختصَّت الفاتحة بأنها مبدأ القرآن وحاوية لجميع علومه لاحتوائها على الثناء على الله تعالى والإقرار بعبادته، والإخلاص له، وسؤال الهداية منه، والإشارة إلى الاعتراف بالعجز عن القيام بنعمه، وإلى شأن المعاد، وبيان عاقبة الجاحدين، إلى غير ذلك مما يقتضي إلى أنها أخير»[(٤)].

---

(١) من حديث أخرجه البخاري عن أبي بكر، انظر: الجامع الصغير (١٨٢/٢).
(٢) فيض القدير (١٨٣/٢).
(٣) أخرجه أحمد عن جابر بن عبدالله البياضي، انظر: الجامع الصغير (٩٩/٣). وقال المناوي في فيض القدير (١٠٠/٣): «وقضية صنيع المؤلف أنه لم يخرجه أحد من الستة وإلا لما عدل عنه وهو ذهول شنيع، فقد أخرجه البخاري في التفسير والفضائل، وأبو داود والنسائي في الصلاة، وابن ماجه في ثواب التسبيح».
(٤) فيض القدير (٩٩/٣ ـ ١١٠).





٢ ـ العناية بتبليغ القرآن:

القرآن معجزة النبي ﷺ وهي معجزة باقية إلى يوم الدين، وفي مجتمع أميٍّ لا يقرأ ولا يكتب كان النبي ﷺ حريصاً على أن يبلغ هذه المعجزة إلى أصحابه، ليقوموا بدورهم بتبليغها إلى الناس أجمعين، يقول في حثِّه لهم على التبليغ: **«بلِّغوا عني ولو آية»**[١]، قال المناوي: «وخصَّها لأنها أقل ما يفيد في باب التبليغ، ولم يقل ولو حديثاً إما لشدة اهتمامه بنقل الآيات لأنها المعجزة الباقية بين سائر المعجزات، ولأن حاجة القرآن إلى الضبط والتبليغ أشد، إذ لا مندوحة عن تواتر ألفاظه، وإما للدلالة على تأكد الأمر بتبليغ الحديث، فإن الآيات مع كثرة حملتها واشتهارها وتكفّل حفظ الله لها عن التحريف واجبة التبليغ، فكيف بالأحاديث؟ فإنها قليلة الرواة قابلة للإخفاء والتغير. ذكره القاضي البيضاوي»[٢].

٣ ـ كيف يتلو الرسول ﷺ القرآن الكريم:

لم يكن الرسول ﷺ يسرد الآيات بشكل متواصل، بل كان يقف عند رؤوس الآيات، تقول أم سلمة: (كان يقطع قراءته آية آية، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ ثم يقف، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ ثم يقف)[٣]، قال المناوي موضحاً لهذا الحديث: «ومن ثم ذهب البيهقي وغيره إلى أن الأفضل الوقوف على رؤوس الآي، وإن تعلَّقت بما بعدها، ومنعه بعض القراء إلا عند الانتهاء، قال ابن القيم: وسنة رسول الله ﷺ أولى بالاتباع، وسبقه البيهقي فقال في الشعب: متابعة السنة أولى مما ذهب إليه بعض القراء من تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها»[٤].

---

(١) من حديث أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو، انظر: الجامع الصغير (٢٠٦/٣).
(٢) فيض القدير (٢٠٦/٣).
(٣) أخرجه الترمذي والحاكم عن أم سلمة، انظر: الجامع الصغير (٢٣٨/٥).
(٤) فيض القدير (٢٣٨/٥).



ولا شك أن الوقوف على رؤوس الآيات يتيح للقارىء والسامع فرصة أكبر من التأمل والتدبر، ويعطيه قدراً من الراحة ليتابع التلاوة، ومن شأن البلغاء أن يقفوا عند الفواصل وألا يسردوا الكلام بسرعة فهو مما يتنافى مع بلاغة المتكلِّم.

٤ ـ الفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث القدسي:

سرد السيوطي عدداً من الأحاديث القدسية، وقد قال المناوي عقب شرحها مبيِّناً الفرق بين القرآن والحديث القدسي: «خاتمة: قالوا هذه أحاديث قدسية وتفارق القرآن بأنه اللفظ المنزل للإعجاز بشيء منه، والحديث القدسي إخبار الله نبيه معناه بإلهام، أو منام، فأخبر عنه بعبارة نفسه، وبقية الأحاديث لم يضِفها إليه ولم يروِها، فالقرآن أشرف الكل، فالقدسي لأنه نص إلٰهي في الدرجة الثانية، وإن كان بغير واسطة ملك غالباً، لأن المنظور إليه معناه دون لفظه، وفي التنزيل اللفظ والمعنى معاً، ذكره الطيبي»[١].

٥ ـ أثر القرآن في البيان النبوي:

تأثر البيان النبوي بالقرآن الكريم، من ذلك قول النبي ﷺ: **«قل آمنت بالله ثم استقم»**[٢]، قال المناوي: «وانتزع هاتين الجملتين من آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] وهذا من بدائع جوامع الكلم، فقد جمعتا جميع معاني الإيمان والإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، إذ الإسلام توحيد وهو حاصل بالجملة الأولى، والطاعة بسائر أنواعها في ضمن الثانية، إذ الاستقامة امتثال كل مأمور وتجنب كل منهي»[٣].

---

(١) فيض القدير (٤/٤٩٨).

(٢) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن سفيان بن عبدالله الثقفي، انظر: الجامع الصغير (٤/٥٢٣).

(٣) فيض القدير (٤/٥٢٣).



ومن ذلك أيضاً: قول النبي ﷺ: **«من تمام النعمة دخول الجنة والفوز من النار»**[1]، قال المناوي: «إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وهذا قاله لمن قال له: يا رسول الله! علِّمني دعوة أرجو بها خيراً، ومقصود السائل: المال الكثير، فردَّه النبي ﷺ أبلغ رد بقوله ذلك في الجواب من قبيل الكناية، وفيه من المبالغة والبداعة ما لا يخفى، فمن أشكل عليه مطابقة الجواب للسؤال لم يفهم شيئاً من أسرار ذلك المقال»[2].

ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ وهو يذكر أركان الإسلام: **«وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»**[3]، قال المناوي: «**«إن استطعت إليه سبيلاً»** وقيد بها بالحج مع كونها قيداً فيما قبله **اتباعاً للنظم القرآني**، وإشارة إلى أن فيه من المشقة ما ليس في غيره، على أن فقدها في صلاة وصوم لا يسقط فرضها بل وجوب أدائه بخلاف الحج»[4].

ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ: **«التاجر الصدوق مع النبيين والصدِّيقين والشهداء»**[5]، قال المناوي: «قال الطيبي: **«مع النبيين»** بعد قوله: **«التاجر الصدوق»** حكم مرتب على الوصف المناسب، من قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩] وذلك أن اسم الإشارة يشعر بأن ما بعده جدير بما قبله، لاتصافه بإطاعة الله، وإنما ناسب الوصف الحكم لأن الصدوق بناء مبالغة من الصدق كالصديق، وإنما يستحقه التاجر إذا أكثر تعاطيه الصدق، لأن الأمناء ليسوا غير أمناء الله على عباده، فلا

(١) أخرجه الترمذي عن معاذ، انظر: الجامع الصغير (١٢/٦).
(٢) فيض القدير (١٢/٦).
(٣) من حديث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر، انظر: الجامع الصغير (١٧٨/٣).
(٤) فيض القدير (١٧٨/٣).
(٥) أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي سعيد، انظر: الجامع الصغير (٢٧٨/٣).

غرو لمن اتَّصف بهذين الوصفين أن ينخرط في زمرتهم، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]»[١].

أخيراً لا بدَّ من الإشارة إلى أن بلاغة القرآن كانت في المقدمة، وهي المرجع والعمدة لشراح الحديث النبوي، يقول المناوي عند قول النبي ﷺ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**[٢]: «قال الطيبي: وفي وصف الأمر بهذا إشارة إلى أن أمر الإسلام كمل واشتهر، وشاع وظهر ظهوراً محسوساً بحيث لا يخفى على كل ذي بصرٍ وبصيرة، **«هذا»** إشارة لجلالته ومزيد رفعته، وتعظيمه، من قبيل ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البَقَرَة: ٢] وإن اختلفا في أداء الإشارة، إذ «تلك» أدل على ذلك من «هذا»»[٣].



(١) فيض القدير (٣/٢٧٨).
(٢) أخرجه الشيخان وأبو داود وابن ماجه عن عائشة، انظر: الجامع الصغير (٦/٣٦).
(٣) فيض القدير (٦/٣٦).



الخاتمة

أوجز هنا ما عملته في هذا البحث، والنتائج التي تم التوصل إليها.

تكوَّن البحث من: مقدمة، وفصلين، وخاتمة، يليها فهرس المصادر والمراجع.

في المقدمة: تكلَّمت عن أهمية البحث، وذكرتُ أن في كتاب «فيض القدير شرح الجامع الصغير»، ثروة بلاغية مخزونة في ثناياه، فقررت أن أدرس البلاغة النبوية فيه.

وفي الفصل الأول: تناولت مسائل علم البديع ضمن مبحثين، تناول الأول منها المحسنات المعنوية، وذكرتُ الطباق والمقابلة، والتفنن، والالتفات، والمذهب الكلامي، والتجريد، والمشاكلة، واللف والنشر، والتقسيم، والمبالغة، والأسلوب الحكيم، وتجاهل العارف، والتكميل، والتعليق، والتتميم، والترقي، والتغليب، والتوشيع، والتذييل، والاطراد. وفي المبحث الثاني: تناولت المحسنات اللفظية، وهي: الجناس، والازدواج، والتسجيع.

وفي الفصل الثاني: تناولت فيه مسائل عامة تتعلق بالبلاغة والنقد، وقد تضمن هذا الفصل أربعة مباحث تدور حول موقف النبي ﷺ من الشعر، وموقف النبي ﷺ من البيان، وخصائص البيان النبوي، والبلاغة القرآنية والإعجاز.

وأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث ما يلي:

أولاً: لقد استوعب المناوي معظم فنون البديع تقريباً في شرحه، وكان ينقل عن علماء البلاغة والحديث والتفسير وغيرهم ممن كان قبله، ويقتبس

من شروحهم، ولم يكن المناوي مجرد مقتبس ممن كان قبله، بل لقد كان يدلي بدلوه أحياناً، ويقدم آراءه بين آرائهم، وهو على العموم عالم محقق، وقد حفظ لنا في شرحه آراء كثير ممن سبقه.

ثانياً: يزخر الحديث النبوي بألوان من البديع، وما جاء فيه من البديع هو من أعذب الكلام بلا تكلّف ولا تصنُّع.

ثالثاً: أشار المناوي إلى حجية الحديث النبوي في النحو ومرجعيته بالبلاغة، وهذا يجعلنا نؤكد على أهمية اعتماد الأحاديث الصحيحة ثروة لغوية ومرجعاً علمياً، وينبغي الاستمداد منها في صياغة علوم النحو والصرف والبلاغة وغيرها.

رابعاً: تضمن شرح المناوي للحديث النبوي كثيراً من القضايا النقدية مثل: الموقف من الشعر، والبيان، وجوامع الكلم، والإعجاز، وغير ذلك، مما يمكن أن يثري البحث في هذا المجال.

أسأل الله أن يتقبَّل منا صالح الأعمال، إنه وليُّ ذلك، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

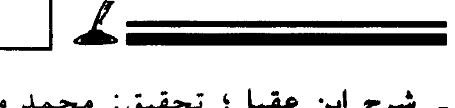




المصادر والمراجع

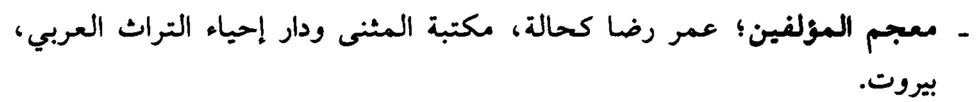
- **أساس البلاغة**؛ للزمخشري، تحقيق: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- **إعجاز القرآن**؛ للباقلاني، تحقيق: السيد صقر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.
- **الأعلام**؛ للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م، بيروت.
- **الإيضاح في علوم البلاغة**؛ للخطيب القزويني، تحقيق: د. محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**؛ للشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
- **البيان والتبيين**؛ للجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- **تاريخ الخلفاء**؛ للسيوطي، دار الفكر، بيروت.
- **تأويل مختلف الحديث**؛ تحقيق: محمد الأصفر، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- **التلخيص**؛ للخطيب القزويني، ضبطه عبدالرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي.
- **التبيان في علم المعاني والبديع والبيان**؛ للطيبي، تحقيق: د. هادي الهلالي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- **تحرير التحبير**؛ لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
- **الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير**؛ للسيوطي، دار الفكر.
- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، للمحبي، دار صادر، بيروت.
- **دلائل الإعجاز**؛ لعبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**؛ لابن العماد، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود.





- **شرح ابن عقيل**؛ تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **شرح السنة**؛ للبغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.
- **شرح القصائد العشر**؛ للتبريزي، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**؛ للسخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- **طبقات الشافعية الكبرى**؛ تحقيق: عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي، نشر عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى.
- **العمدة في صناعة الشعر ونقده**؛ لابن رشيق القيرواني، تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **الفائق في غريب الحديث**؛ للزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.
- **فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير**؛ للمناوي، دار الفكر.
- **كتاب الصناعتين**؛ لأبي هلال العسكري، تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- **كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**؛ للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **الكامل في اللغة والأدب**؛ للمبرد، مكتبة المعارف، بيروت.
- **الكشاف**؛ للزمخشري، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **مجمع الأمثال للميداني**؛ تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٢م.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**؛ لابن الأثير، تحقيق: د.أحمد الحوفي، ود.بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.
- **مشكاة المصابيح للتبريزي**؛ تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.





- **معجم المؤلفين**؛ عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **الوساطة بين المتنبي وخصومه**؛ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- **هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين**؛ للبغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

